٢٠٠

سلسلة الأدب

أين تذهب طيور المحيط

من الإسكندرية إلى موسكو

إبراهيم عبد المجيد

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

أين تذهب طيور المحيط

من الإسكندرية إلى موسكو

إبراهيم عبد المجيد

أين تذهب طيور المحيط من الإسكندرية إلى موسكو

لوحة الغلاف من أعمال الفنان منير كنعان

المشرف العام:

د. ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف:

د. طلعت متولي

التنفيذ:

الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد المجيد، إبراهيم.

أين تذهب طيور المحيط من الإسكندرية إلى موسكو / إبراهيم عبد المجيد. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

٢٢٨ ص؛ ٢٠سم

تدمك ٩ - ٠٦٣ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - عبد المجيد، إبراهيم - الذكريات.

٢ - الأدب المصري - وصف ورحلات.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٩/٢٧٧٣١

I.S.B.N 978-977-421-063-9

ديوي ٩٢٠

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية للقراءة للجميع في دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «مصر السلام»، هذا الشعار الذي ظلت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، ولتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق في تلك دورات المهرجان السابقة، فهي جزء من تاريخ مصر العريقة، التي بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثاني أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت في النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة سوزان مبارك جائزة التسامح الدولي لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التي جاء في تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة سوزان مبارك عرفانًا بدورها الكبير في إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها

الجادة، وأصبحت القراءة للجميع من أهم المشروعات الثقافية العملاقة في العالم العربي، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به في بلاد أخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسي من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها في إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة في زمن تزحف فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذي يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذي يلتقي به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعي، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع في إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

الرحلة الأولى

إلى موسكو بعد طول انتظار

انطباعات عن بلاد «البيريسترويكا»

اليوم كان السابع عشر من شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، والرحلة سبقتها أيام من العناء.

أن تكون مرشحًا للسفر إلى الاتحاد السوفيتي من قبل وزارة الثقافة المصرية يعني إجراءات ملونة، وقليفية مملة ومرهقة، لكنني كنت أجري في الشوارع وبين المكاتب.

روسيا.. روسيا.. الاتحاد السوفيتي.. الاتحاد السوفيتي، هذه فرصة لا تُتاح للكُتَّاب في مصر كثيرًا، خاصة لمن هم مثلي ليس لهم في العلاقات العامة باع ولا ذراع ولا في اتحاد الكُتَّاب وضع أو عضوية فعَّالة، ولا يعملون في الصحافة، ولا يسلمون من حرب أنصاف الكُتَّاب الذين اشتهروا خلسة إذ توفر لهم ما مضى كله.

روسيا، روسيا، من تولستوي إلى إيتماتوف مرورًا بالكوكبة الذهبية الروسية والسوفيتية، ومرورًا بعمري، بقراءاتي الأولى لأدب الأمة الروسية ونماذج شعبها الطيب البائس، وقراءاتي الهادرة في الماركسية وكيف خيبت روسيا ظن ماركس، فتقدمت هي لتحقيق أفكاره، هي الإقطاعية لا إنجلترا البرجوازية، وقدمت للدنيا مفكرًا من عندها أكثر قدرة وعقلاً، وتنظيمًا، وعملاً وإرادة هو فلاديمير إيليتش لينين وعربته الذهبية التي جرتها خيول من نوع تروتسكي وبوخارين وستالين قبل أن تدخل الخيول في شجار عنيف مذكور في الكتب المسموح بها والمحرمة، التي تضعها حكومات العالم الثالث في فترينات المكتبات تعبيرًا عن حسن العلاقة مع القوة العظمى الثانية في العالم، ثم تعتقل من يشتريها قبل وبعد القراءة!

الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي. اليوتوبيا التي تحققت للبشرية في القرن العشرين بعد أن كانت حلم عصر التنوير، حلم المفكرين في إنجلترا وفرنسا والمانيا، والتي حين خرج العالم من الحرب العالمية الأولى بدأت أكبر عملية «حج» لمفكري الغرب إلى هذه اليوتوبيا الجديدة، عملية «حج» لعشرات الكتّاب والمفكرين من العالم القديم والجديد ويلز مثلاً وشو وجيد وإدموند ويلسون وسوزان سونتاج.

لكني ذاهب الآن في حقبة البيريسترويكا، ذهب اقطاب من اليسار المصري وعادوا يقولون لا خوف

على الماركسية اللينينية وأن وما يجرى مجرد تصحيح لتجربة أكبر دولة شيوعية، مجرد تغيرات لن تلغى الثوابت أبدًا..

وأنا أريد أن أرى وأعرف، لكننى سأحاول أن أرى وأعرف من الناس العاديين فى الشوارع، وليس عن المسئولين في الحزب، أى حزب، وإن كنت بالطبع لن أقابل كل الناس (٢٩٠ مليونًا) ولن أجول بين كل القوميات (١٣٠ قومية) شرقية وغربية، تتحدث لغات مختلفة إلا فى المدن الروسية الكبرى حيث يكون للغة الروسية فاعلية كبيرة.

أجل، سأبتعد عن المدن الكبرى، عن عواصم القوميات، فتدخل مدينة بابل القديمة التى أغضبت عليها الآلهة من كثرة الثرثرة والضجيج بكل اللغات فأرسلت عليها الطوفان الشهير..

ذاهب أنا فى حقبة البيريسترويكا التى تحتفل بها كل إذاعات الغرب المرئية والمسموعة والتى تلح علينا بالاضطرابات فى لاتفيا وإستونيا وليتوانيا، جمهوريات البلطيق بحر العنبر، وبالاضطرابات فى الجنوب، في جورجيا التى أنجبت ستالين وتشق الآن عصا الطاعة بقوة، وفى أذربيجان التى تستند على إيران وطاجيستان بلد عبد الرحمن الجامي وداغستان بلد رسول حمزاتوف وغيرها وغيرها.

كان المفروض أن يستقبلني في المطار أحد. أي أحد، من اتحاد الكتّاب السوفيتي، لكن لم يستقبلني أحد، وصلتهم برقية تعلن أن وصولي سيكون في اليوم الثامن عشر، ومعي زميلي الشاعر محمد أبودومة، لكننا وصلنا في اليوم السابع عشر، وعن طريق فيينا، لأن الطائرات المصرية لا تصل مباشرة إلى موسكو منذ ألغى السادات الرحلات المباشرة لشركة الطيران المصرية إلى هناك. وفي فيينا لم نر إلا فندق «نوفوتيل» الصغير الأنيق القريب من المطار. ولن نرى منها في العودة إلا نفس الفندق ومحطة مترو قريبة «اسمع يتى» ولا ننس فيينا عاصمة النمسا، جملة أتذكرها كثيرًا كان مدرس اللغة الإنجليزية زمان وأنا في المرحلة الإعدادية يقطع الدرس دائمًا ويهتف بها أكثر من مرة ودون أن نعرف السبب، ولا نستطيع أن نضحك وتركنا المدرسة، ولم نعرف لماذا كان يفعل ذلك. لم نسأله أبدًا.

تذكرت هذه الجملة أكثر من مرة في فيينا وأنا أشرب الشاي بثلاثين شلنًا (ثلاثة دولارات) وآكل طبق السلاطة بخمسين شلنًا وزميلي الشاعر محمد أبودومة يقول لي: لا تظن أن «ليالي الأنس في فيينا» كما قالت أسمهان، وأمام كل الفاترينات التي رأيتها في فيينا داهمني شعور بائس بأنني الابن الفقير الخائف للعالم الثالث أو الرابع أو الخامس إذا شئت.

وازداد شوقي للذهاب إلى موسكو وفي العودة إلى القاهرة.

وعندما ركبت الطائرة الصغيرة من فيينا بدأ شلال من الأفكار المتقاطعة يهدر في رأسي. موسكو التي كانت بداية النهاية لحلم نابليون، ولأطماع هتلر، والكرملين الجميل الذي بناه القياصرة وكاد نابليون يهدمه وملأه ستالين بالرعب. موسكو التي خرجت منها تحليلات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي باعتبار الحكومات البرجوازية في الدول المستقلة بعد الحرب الثانية حكومات وطنية، وما كان من هذه الحكومات الوطنية من طحن للشيوعيين لم يسبق له مثيل. وخروشوف الذي دشن أول صفحة في نقد ستالين والذي دمر بيريا وزير داخلية ستالين الرهيب والذي جاء إلى مصر يفتتح مشروع السد العالي، أو يزوره والشيوعيون المصريون في جميع سجون مصر. موسكو التي ذكرها السادات بكل سوء، وناضل الكتّاب الوطنيون نيابة عنها، عن أنفسهم ضد كامب ديفيد وضد الذهاب إلى الصلح مع العدو منفرداً دون موسكو، وبلا أهل من العرب. الآن انتهى كل ذلك. عاد العرب إلى مصر وعادت مصر إليهم شكراً، وعاد السوفييت إلينا لكنهم أيضاً عادوا إلى العالم في صورة أخرى. هل يمكن أن أرى هذه الصورة حقاً. وهل رأيتها؟

لقاء فلسطيني عابر، لقاء مصري

ثلاث ساعات في المطار، زحام خانق، حر شديد، أجل، بفعل التكييف القوي، ورثيت لزميلي الذي يرتدي البدلة، أنا دون بدلة، ولا أحب الهواء المكيف، ساخنًا أو باردًا، ولا أحد في انتظارنا ينقذنا من إجراءات الجمارك وطابور الدخول الطويل الذي أصابني بالضيق والتعب، خرجت من الطابور وتقدمت إلى الشرطي المنوط به التفتيش وإعطاء تأشيرة الوصول، تحدثت بالإنجليزية، نحن وفد من الكتاب المصريين والمفروض أن يكون في انتظارنا أحد (لم أكن أعرف أمر البرقية الخاطئة بعد) من جفريت انجيليسكي، لا يتكلم اللغة الإنجليزية، هكذا يقول لم أصدقه، ارتفع صوتي غضبًا، ارتفع صوته وغضبه، نهرني لابد بالروسية الفخمة وأشار لي أن أعود إلى الطابور، هل ستتشاجر هنا في موسكو؟ سألني أبودومة، دعك عني، كنا متعبين تمامًا، عدت إلى الشرطي الشاب الصغير وعلا صوتي فعلاً وصوته أيضًا، لا أحد منا يفهم ما يقوله الآخر، غير أنه يدرك أني أريد أن أخرج من الطابور الطويل، وأنا أدرك أنه يرفض والواقفون صامتون والجو رمادي سحابي فالملابس كلها قاتمة، وعدت إلى الطابور لكن كان دوري الحقيقي قد اقترب فأشار إلي بالتقدم وأنهى الموقف بسرعة وبلا تفتيش للحقائب لكن كانت ساعة قد مضت.

خرجنا إلى زحام أكثر. الآن يلتقي المسافرون والقادمون والمنتظرون والمودعون ولا أحد في استقبالنا ولا نعرف أين نذهب. المصريون هنا كثيرون. ومعي أرقام تليفونات لبعضهم وأرقام تليفونات لاتحاد الكُتّاب. اتصل أولاً باتحاد الكتاب. لا أحد يرد. قالت لي موظفة الاستعلامات: إن اليوم السبت. لا أحد يعمل بعد الظهر. لم يكن معي أرقام تليفونات المنازل لأي من المستشرقين. لا إيجور يرماكوف ولا فاليريا كيربتشكا ولا أولجا فلاسوفا. معي تليفونات منازل المصريين د. أبو بكر يوسف أكبر المترجمين من الروسية إلى العربية. وأحمد الخميسي وعزة الخميسي. لكن صديقي الشاعر أبادومة فجأة اكتشف أننا أدباء كبار. وأنه كان يجب أن ينتظرنا أحد من السفارة المصرية. لابد أن نتصل بالسفارة المصرية. معي أيضًا أرقام تليفوناتها. وبالذات رقم تليفون د. حسني إبراهيم المستشار الثقافي. لم نجد أحدًا بالسفارة. سيكون ذلك سببًا في حزن الدكتور حسني إبراهيم فيما بعد. وسيقابلنا وسيساعدنا كثيرًا. لكن قبل العودة بأيام لأننا لم نبق في موسكو في مكان واحد. حاولت الاتصال بأي من المصريين لكن صديقي الشاعر يقاوم ويرفض. لا يريد أن يستقبله أحد إلا أعضاء من السفارة المصرية. لكني طبعًا لم أنتظر. اتصلت بالدكتور أبي بكر يوسف شيخ المترجمين. وكان بداية انفراج الأزمة. كيف حقا لم يقابلكم أحد؟ انتظر نصف ساعة

وكلمنى، بعد نصف ساعة أخبرنى أنه تحدث مع اولجا فلاسوفا في منزلها وعلم منها أن البرقية تعلن ان بوصولنا غداً وليس اليوم، وأعطانى رقم تليفون بيتها. وقال أستطيع أن أكلمها حتى يجد لنا هو مخرجًا.. واعتذر أنه لا يستطيع أن يأتى بنفسه. فهو لا يستطيع قيادة السيارة فى هذه العاصفة الثلجية، فضلاً عن أن السيارة نفسها معطلة. لكنه لن يتركنا وقال لى مرة أخرى أن أنتظر ولا أغادر المطار حتى تنتهى المسألة.

- حضرتك مصرى؟

- أجل وحضرتك؟

- فلسطيني، مهندس قادم من الجزائر. الاحظ أنكما فى أزمة.

كان يقف جوارنا منذ وقت طويل يحاول استخدام التليفون الوحيد لمكاتب الاستعلامات، وهو نفس التليفون الذى نحاول استخدامه وسط زحام شديد.. وسألنى:

- هل هذه أول زيارة لكما إلى الاتحاد السوفيتى؟

- نعم..

- انا أيضًا. وأحاول الاتصال بالسفارة الفلسطينية. هل من خدمة أؤديها لكما؟

- نحن كاتبان مصريان. إذا كان هناك ملحق ثقافى ربما يكون قد سمع بنا. وإذا كان يتابع مجلة «الكرمل»

فلابد أنه اصطدم بإسمي. نحن نريد سيارة فقط تقلنا إلى أي فندق معروف نجد فيه مكانًا ومعنا تكاليف الإقامة. فقط نريد تسهيل المهمة.

- هذا بسيط. سأتحدث أنا إليهم بذلك.

ولا أعرف وحتى الآن لا أعرف لماذا احتج زميلي الشاعر، عاد يقول إننا أديبان كبيران ولابد أن يستقبلنا أحد من السفارة المصرية. إن في هذا الذي أريده عارًا كبيرًا لنا ولمصر، وإنه يرفض تمامًا الذهاب عن أي طريق إلا سفارتنا التي يجب أن تحترمنا وتقدم لنا المساعدة. ووقفت حائرًا ومندهشًا من هذه الصرعة التي أصابت صديقي الشاعر. ماذا يريد بالضبط: استقبالا يليق بنا أم خروجًا من المأزق؟

واندفعت معه في نقاش عنيف. ضحكنا منه بعد ذلك كثيرًا، ولم يفصح لي أبدًا عن سر صرعته تلك، حتى ونحن نضحك بعد ذلك، ولم أستطع طبعًا أن أخيب رجاءه وأقول إننا حتى لو كنا في مصر فلن نجد من يعرفنا خارج دائرة الكُتّاب الضيقة، لم أشأ أن أذكره بذلك. وكان المهندس الفلسطيني قد بدأ يتكلم تليفونيًا بالسفارة، لكن يبدو أنه لم يفهم الأمر جيدًا. لقد اعتذر عما حدث وتركنا وانصرف، وأنا أقف في غاية الدهشة أتأمل صديقي الشاعر الذي راح من جديد يتصل بالسفارة المصرية و هو يعرف أنها مغلقة.

بعد ذلك اتصلت بالكاتب أحمد الخميسي فلم أجده، وبأخته عزة الخميسي فلم أجدها وتذكرت أن معي رقم تليفون المستعربة أولجا فلاسوفا فهاتفتها.

- إبراهيم. أنا آسفة جداً البرقية تعلن قدومكما غداً. وأنت لا تعرفني. سوف تراني غداً وندرك أنني لا أستطيع القيادة في هذا الجو. هناك عاصفة ثلجية مفاجئة والحرارة عشر درجات تحت الصفر وسوف تعذرني لكن لا تترك المطار. أنا أحاول مع الدكتور أبي بكر أن نجد لكما مخرجاً.

ولم أتأخر في الاتصال من جديد بالدكتور أبي بكر يوسف الذي قال لي ألا أتحرك من جديد وأنه وجد صديقاً يعرفني وهو في الطريق إليّ الآن. وتنفست.

* * *

- إبراهيم عبدالمجيد في موسكو؟

- فاروق رضوان؟!

وعناق طويل. أطول من مظاهرات يناير ١٩٧٧ التي أصيب فيها فاروق برصاصة شجت بطنه ونشرت كل الصحف صورته فوق المتظاهرين. لم أر فاروق بعد ذلك إلا مرة بعد خروجه من السجن ومرة في الإسكندرية في الصيف، ثم سافر إلى موسكو ليحصل على الدكتوراه في القانون ويعمل في الترجمة..

- أحضرت لك بالطو من باب الاحتياط. أعرف أنك لا تملك بالطو.

وحمدت الله أن «أبو دومة» لم يحتج. فقد بدا أنه يعرف فاروق أيضًا وفاروق بدوره حدثه عن أمسية شعرية قديمة في السبعينيات كان أبودومة فيها نجمًا وكان لجيهان السادات عليه تعليق أنه شيوعي. امتلأ أبودومة بالسرور.

فها هو واحد من مستمعي شعره. وقال إنه في تلك الليلة لم ينم في البيت، وظل يمشي هائمًا في شوارع القاهرة خوفًا من جيهان السادات التي لا يعرف لم حضرت الأمسية الشعرية. وبدأت رحلتنا.

وسط البياض المديد

يقف ماياكوفسكي غاضباً

الثلج لأول مرة في حياتي. البياض الشاهق فوق كل شيء رغم ظلام الليل. الجليد متراكم على جانبي الشوارع الواسعة وحول الأشجار العارية سامقة الارتفاع سوداء الجذوع والسيقان والأغصان كأنما أحرقها برد الشتاء وأنا مبهور بالجو في الليل ولا تفارق عيناي الطريق الواسعة وفي الفضاء تتطاير هابطة ندف الثلج القطنية. يقول صديقي فاروق رضوان إن العاصفة فاجأت الجميع، وإن الذين يعيشون في موسكو يعرفون أن شهر شباط (فبراير) هو أكثر شهور السنة ثقليًا. وأنا أتابع الجماعات القليلة من السكارى الذين يخرجون من بين الأشجار يترنحون في الطريق ويشيرون إلى السيارات، وكادت

سيارتنا تصطدم بواحد منهم، وكنت أيضًا أتأمل بدهشة العناق الطويل بين رجل وامرأة على جانب الطريق. أمضينا ليلة مُبهجة في منزل صديقنا الذي وصلنا إليه عن طريق طويلة دائرية حول موسكو في منطقة قريبة من جامعة موسكو. منطقة جديدة شوارعها غير مرصوفة غطاها الجليد لمسافة لا تقل عن ربع متر على الجانبين وحفرت السيارات طريقها بالقوة شقه. حيث لنا زوجة صديقنا الألمانية الشرقية ضيافة منعشة أنستنا تعب الرحلة وساعات المطار الثلاث ولأن الذكريات كثيرة طال سهرنا وشاهدنا على شريط فيديو عبدالرحمن الأبنودي وهو يلقى قصيدته الطويلة الموت على الأسفلت وفيلمًا تسجيليًا مجريًا عن الانتفاضة الفلسطينية. وفي الصباح بعد نوم قليل ويقظة مبكرة في الساعة السابعة تقريبًا رأيت النهار الضبابي الرمادي لموسكو، الأرض البيضاء أكثر نصاعة والأطفال يخرجون مبكرين بالزحافات للتزحلق بين الأشجار وحاولت من منزل صديقي الاتصال بالقاهرة، كنت أريد بشغف أن أصف المشهد الصباحي الرائع لأحد لكن للأسف تعذر الاتصال.

فندق بيكين ولكن

عرفنا بعد اتصال تليفوني بأولجا فلاسوفا أننا سننتقل بدءًا من اليوم في فندق (بيكين) وهناك سيقابلنا المترجم المنوط به مرافقتنا، وأخذنا فاروق

إلى الفندق الصغير الجميل الذي لم نبق فيه غير يومين فقط. الفندق يقع في وسط المدينة في ميدان ماياكوفسكي، ويبدو من طرازه أنه كان أحد القصور القديمة قبل الثورة. أمام الفندق مباشرة تمثال ضخم لماياكوفسكي غاضبًا يريد أن ينطلق من فوق قاعدته، وأمام التمثال يمتد على الجانبين شارع جوركي الطويل الواسع وعلى يسار الفندق وخلف التمثال سينما موسكوفا وأمامه محطة مترو ومسرح. في فندق بيكين قابلنا المترجم - مستر فيتالي - طويل ذو شعر أصفر وادع الملامح خجول رحب بنا بوداعة لا تليق إلا بالشعب الروسي، وحين تحدث أدركنا أنه تعلم العربية في بلاد الشام وبالفعل كان يتحدث كأنه واحد من أهل الشام إذ أمضى هناك خمس سنوات من حياته. لقد صحبنا إلى الغرفتين المحجوزتين لنا وسألنا في خجل شديد: ما رأيكما. هل هي غرف طيبة؟ ما رأيك أنت؟ ليست طيبة بأي حال مستر فيتالي. ليس مهمًا أنها سيئة الفرش، ولكنها ضيقة جدًا، إنك لا تستطيع أن تستقبل فيها صديقًا واحدًا.

فعلاً، معكما حق سنحاول مع إدارة الفندق تغيير الغرف ولم يكن ذلك سهلاً، كان المستحيل بعينه، المناقشات حامية في الكرملين والوفود من جميع الجمهوريات. القيادات الحزبية. مجالس السوفييت. لإقرار قوانين الملكية وتحديد أوضاع الجمهوريات المتمردة وكل الفنادق محجوزة وكل الغرف فضلاً عن وجود أعداد كبيرة من رجال المال والأعمال

الأمريكان واليهود خاصة يملئون موسكو وينتظرون قوانين الملكية الخاصة، لا مفر من البقاء في غرفتنا يومين ثم نذهب في رحلة إلى كييف ونعود فنجد اتحاد الكتاب قد حل المشكلة حتى لو انتقلنا إلى فندق آخر. ولأن اليوم كان الأحد فلم يكن هناك برنامج من أي نوع ومن ثم طلبنا من مرافقنا الطيب أن يتركنا «سوف نتسكع في شوارع موسكو واذهب أنت إلى بيتك يا صديقي».

ليل الشوارع

لم يقل لي أحد إنه يمكن للإنسان في مثل هذا الصقيع أن يتناول الآيس كريم بشغف. خرجت من الفندق الصغير الجميل بعد العصر أتسكع في الشوارع. اتجهت إلى محطة المترو المواجهة لتمثال ماياكوفسكي حيث ينزل إليها ويصعد منها أعداد كبيرة من البشر. لم أتقدم أكثر من خطوات ووجدت نفسي مرتبكًا لا أعرف ماذا يفعل الناس حين يركبون المترو، كنت وحدي حيث رفض زميلي الشاعر النزول خوفًا من البرد بالليل، بعد ذلك عرفت أن الذين يضعون قطعًا من النقود في صناديق معلقة بالحائط إنما يفعلون ذلك للحصول على قطع صغيرة من فئة الخمس كوبيكات وأنهم بعد ذلك يضعون قطعة واحدة منها في صناديق أرضية فيسمح لهم بالمرور منها أوتوماتيكيًا إلى السلالم الكهربية الجبارة التي تنقلك إلى رصيف المترو تحت الأرض في العمق البعيد

المثير بحق لي على الأقل. وقد ركبت المترو بعد ذلك أكثر من مرة وعرفت أنه يمكن للفرد الواحد وبخمس كوبيكات فقط أن ينتقل بين جميع محطات المترو تحت الأرض، ويقطع كل خطوط المترو التي تمتد لحوالي مائتي كيلو متر تحت موسكو ويجري توسيعها الآن أيضًا. بالطبع لن يفعل هذا إلا مجنون واكتفيت بالابتسامة للفتيات والسيدات اللاتي يقفن بالمحطة حاملات زهور القرنفل الحمراء في أيديهن ينتظرن أحبائهن. تركت محطة المترو إلى الطريق. نظرت إلى تمثال ماياكوفسكي وعبرته بسرعة . ساعود إليه فيما بعد لأنظر إليه مليًا ومشيت في شارع جوركي لأجد زحامًا شديداً أمام محمل صغير. طابور طويل وزحام من الفتيات والشبان والأطفال يأكلن الآيس كريم. يا إلهي في هذا البرد العاصف، كانت العاصفة لا تزال لليوم الثاني ترسل ندف الثلج من الفضاء إلى الأرض طائرة في خطوط هندسية متوازية مثيرة للعين بحق ووقفت أحاول أن أتذكر أين قرأت عن ذلك ولم أتذكر.

في اليوم التالي حين قابلت الشاعر والمستعرب إيجور يرماكوف قال لي إن تشرشل أصابته الدهشة نفسها حين زار موسكو لأول مرة بعد هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتي، وقال لستالين إن شعبًا يأكل الآيس كريم في درجة حرارة تصل إلى أكثر من عشرين تحت الصفر لابد أن ينتصر في الحرب. وأحسست بالبرد لأول مرة، وكان الليل قد غشى

المدينة لكن الشوارع ذات الأرضية البيضاء تضيء أمام عيني رغم انغلاق المتاجر على طول امتداد الشارع وكل الشوارع. لم تكن بي رغبة في العودة إلى الفندق فوقفت امام باب سينما موسكوفا متردداً ودفعت الباب ووقفت في الجو الساخن للمكيفات كانت هناك جماعات قليلة من الشباب والفتيات وكان مظهري مثيراً للجميع. البالطو وطول جسمي ربما لا يثيران أحداً في موسكو، كل الناس ترتدي البالطو والأجسام الروسية طويلة لكن ما كان فوق راسي هو الذي كان مثيراً، لم تكن (شبكة) روسية إنما (لبدة) صعيدية اشتريتها من ميدان العتبة بالقاهرة. ورأيت الابتسامة على وجوه الجميع وفتحت لي الابتسامة الطريق للكلام ولكن مع فتاتين صغيرتين ربما لا تتجاوزان الواحدة والعشرين من العمر. فتاتان شديدتا الشبه ببعضهما لوجه كل منهما حمرة التفاح، ولفم كل منهما نفس الدقة والابتسامة الطفولية. أحسست بهما توءمين لهما نفس العينين الزرقاوين ونفس الجسم الصغير الدقيق وعلى رأس كل منهما نفس غطاء الرأس الأبيض، وحول عنق كل منهما نفس الكوفية البيضاء. للحظة فكرت أنه ربما ليست هذه سينما فلم يكن على الجدران أية صور للفيلم المعروض إلا صورة كبيرة. أفيش لممثل لا أعرفه وممثلة لا أعرفها، وكل شيء مكتوب بالروسية التي لا أعرفها ايضاً وسألتهما هل تتحدثان الإنجليزية، وسيتكرر ذلك كثيراً مع فتيات وشبان، نادراً ما وجدت

احداً من الناس العاديين يعرف لغة أخرى، قال لى شابان سأتحدث عنهما فيما بعد جاءا من إحدى جمهوريات البحر الأسود إلى موسكو وقابلتهما عند أسوار الكرملين أن تعليم الإنجليزية أو غيرها فى المدارس السوفيتية بائس جداً وأن ذلك ربما كان من آثار السياسة الستالينية.. فالستار الحديدي لم يكن يعنى إخفاء الأسرار فقط إنما قطع العلاقة بين الشعوب السوفيتية وغيرها بقطع اللسان نفسه.

أجابت الفتاتان بالروسية «لا» أسهل كلمة فى العالم هى كلمة «لا» تعرفها من حرف «الإن» الذى تبدأ به غالبًا فى كل اللغات. سألتهما بكلمات روسية قليلة «سينما» اجابتا «دا» أي نعم بالروسية القليلة التى أعرفها، ولم تكفا عن الابتسام والنظر إلى الشدة الصعيدية فوق رأسي قلت «يا إيجيبت» أنا مصرى فظلتا تبتسمان سألتهما عن الفيلم هل هو روسى فقالتا إنه «فرانسوسكي» إذاً هو فيلم فرنسي، ولم استطع أن أتقدم فى الحديث وتعقد اللسان. أشرت بيدى معبرًا عن رغبتى فى رؤية الفيلم فأشارتا إلى الطريق إلى شباك التذاكر. قطعت تذكرة دخول وعدت إليهما فوجدتهما لا تكفان عن الابتسام. سألتهما ما إذا كانتا أختين فقالتا: لا. سألتهما عن اسميهما فوجدت واحدة تسمى تانيا والأخرى تسمى تانيا أيضًا. تشابه فى الاسم والشكل والابتسامة الطفولية المبهجة وغير أختين لبكن. كانت الساعة السابعة والفيلم سيبدأ فى الثامنة. أمامنا ساعة

للحديث، درست منذ سبعة عشر عامًا اللغة الروسية لمدة ستة أشهر حين كنت أعمل في مشروع الترسانة البحرية في الإسكندرية، وكان فيها خبراء سوفييت وهاتذا الآن أتذكر من حديثهما بعض الكلمات التي بدا أني نسيتها، سألتهما ما إذا كانتا طالبتين فعرفت أنهما عاملتان وسألتهما على البيريسترويكا فقالتا: «خرشو» وهل هذا رأي الناس ممن هم أكبر منا فقالتا: إن هذا رأي أسرتيهما أيضًا وسألتهما رغم المشاكل التي نسمع عنها فقالتا «نى بروبليما» يعني لا مشاكل ولم تكف عن الابتسام أبدًا، وبالطبع لا يمكن للمرء أن يفكر للحظة أن هناك توجيهات حزبية من أي نوع ليقول الناس ذلك، وسوف يقول غيرهما ذلك ولكن لم تكن اللغة حاجزًا بيني وبينهما لوجود المترجم مرة ولوجود معرفة باللغة الإنجليزية ولو قليلة عند من أحدثه، ولكن هذا سيحدث فيما بعد وسأسمع لأول مرة أشياء مدهشة لم يخطر ببال أحد أنه يمكن أن يقولها أحد! ومضى أكثر الوقت ونحن صامتون ولكنا حين دخلنا إلى السينما كان علي أن أنصرف بسرعة أولا لأن رقم مقعدي جاء في الدور الأول وهما في الدور الثاني، ولم يكن من الممكن تغيير المقاعد بسبب الزحام، وثانيًا لأن هذا الزحام من شباب وفتيات جاءوا اثنين اثنين ولا يمكن لأحد أن يفرط في مقعده لخاطري، وثالثًا لأن الفيلم مدبلج وناطق كله باللغة الروسية، ورابعًا لأن السينما لم تكن جيدة كانت ضيقة وأشبه بسينمات الدرجة الثالثة في

مصر. خرجت إذاً إلى الشارع مرة أخرى دون وداع لهما أو منهما. فابلني الهواء البارد فأنعشني. لا أريد أن أعود إلى الفندق إلا متعبًا للنوم، لا أريد أن أسجن نفسي في أية غرفة. مشيت متباطئًا في شارع جوركي أتفرج على فاترينات المحال المغلقة وأنتقل من جانب إلى جانب لأزيد مسافة المشي وفجأة على اليسار وبعد مسافة ليست طويلة وجدت أضواء مشعشعة وزحامًا وحركة ومحل طويل زجاجي الجدران مضاء بأضواء ساطعة وعلى بابه لافتة «ماكدونالد» ها هنا أمريكا. هذا هو مطعم ماكدونالد الذي افتتح مؤخرًا في موسكو لبيع الهمبورجر وهذا هو الزحام الذي تراه في البداية وفي العادة على كل ما يأتي من أمريكا، حدث هذا في مصر بعد عام ١٩٧٣ حين بدأت فترة الانفتاح، وانتشرت محال ويمبي وكنتاكي فرايدتشكين هذه المحال التي أصبحت الآن خالية وقذرة أيضًا. لأن لأمريكا لونًا وطعمًا ورائحة دائمًا. هذه حقيقة قاهرة للبشر حتى الآن على الأقل، وها هو ماكدونالد يختار شارع جوركي الكبير ليس لأنه كبير ولأنه في قلب المدينة ولكن ربما لأن جوركي هو الذي زار أمريكا وعاد يكتب «العصيص». كان الخارجون من المطعم أكثر من الداخلين، حاولت الدخول فأوقفني الشرطي وتحدث وأشار بيديه فعرفت أن المحل يغلق أبوابه لكني رأيت نظافة العاملين ونظافة المكان كله ولما سألت أولجا فلاسوفا في اليوم التالي قالت: إن صاحب المطعم

عقد بعد الافتتاح مؤتمرًا صحفيًا عالميًا داخل المطعم وفجأة شاهد أحد الصحفيين صرصارًا يمشي أمامه وراءه في نفس اللحظة صاحب المطعم أو مديره فقال للصحفي بخبث نادر: هأنت ترى كل شيء في موسكو يأتي إليْ حتى الحشرات: هل سيحدث لماكدونالد ما حدث لويمبي وكنتاكي في مصر؟ هل لن نجد بعد ذلك في المدينة غير الصراصير فقط؟ ذلك أمر يحتاج إلى وقت لنعرف... وعدت أمشي في شارع جوركي، مشيت كثيرًا ولا يقابلني إلا عدد قليل من الناس وبين حين وآخر يمر جواري «ترولي باص» وجنود الحراسة يمشون على مهل في معاطفهم الرمادية وأحزمتهم العريضة وقفازاتهم الرمادية أيضًا وعصيهم القصيرة يهزونها بانتظام، وعدت ماشيًا إلى ميدان ماياكوفسكي وقلت لنفسي هذه فرصة لأن أراه الآن بعد أن انقطعت الحركة في الميدان أو كادت، واقتربت لأرى ملامح الغضب على وجهه وفي ثيات معطفه أمام الريح الوهمية وتذكرت الغضب الذي أودى به إلى الانتحار وتذكرت انتحار يسينين أيضًا الذي قال: إننا من بعيد نرى الأشياء أوضح والذي جن بإيزادورا التي كانت مجنونة بالرقص وبالشعر وعمرها ضعف عمره والذي تزوجها؛ لأنهما معًا كانا خارج الزمن.كانا أسبق من الزمن في عنفهما وثورتهما، كانا يعيشان زمنًا من الشعر والجنون. تذكرت الكسندر بلوك ثالث المستقبليين الثلاثة، المستقبليون قبل الثورة والرفاق بعد الثورة ومرض

الكسندر بلوك العضال وبيروقراطية الحزب التي اخرت علاجه وحين قررت كان الوقت قد فات، وبيروقراطية الحزب التي احتج عليها ماياكوفسكي بالانتحار وقصيدته المستقبلية الجبارة «سحابة في سروال» والترجمة الرائعة لحسب الشيخ جعفر عن الروسية والترجمة المصرية المتآمرة للشاعر المصري الشاب رفعت سلام، وترجمتي المتواضعة التي لم يقرأها أحد لأني ترجمتها لنفسي فقط وانا في سن الثامنة عشرة عن الإنجليزية. ترجمتها لنفسي لأشم حرائق الثورة التي تنبأ بها مايا كوفسكي والتي لم أرها أبدًا. مسكين أنا وأبناء جيلي لم نشاهد إلا انكسار الثورات، مسكين أنا وأبناء جيلي لم نتنبأ إلا بالهزائم، واخطأت أول وآخر مرة في موسكو إذ وضعت يدي في جيب البالطو فطرت في الفضاء لأقع على ظهري فوق الجليد الذي تجمد فوق الأرض، فسار مثل ألواح الزجاج به نتوءات كثيرة بارزة قوية كالصخر القاسي، نهضت متألمًا، آلمني ظهري وربما لولا البالطو لأصبت إصابة قوية، ومضيت إلى الفندق ولم أنظر جيدًا إلى ماياكوفسكي، وفي الفندق القريب قابلني زميلي الشاعر أبودومة الذي كنت نسيته يضحك بشدة وسعادة الأطفال، وقد رآني من نافذة الفندق وأنا أقع وقال لي: إنه كان خلفي أتوبيس كبير كاد يدهمني لولا أنني قمت بسرعة، وأخذتني الدهشة، كيف رأي الأتوبيس؟ لقد كنت تركت الشارع وصعدت إلى المربع العالي الذي يحوط التمثال والذي

لا يمكن أن يصعد إليه إلى الوبيص، لكني وجدته مُصرًا بشدة على أنني كدت أموت تحت العجلات. فقلت: إنَّ الحمد لله لقد نجوت بفضله من موت محقق يا صديقي، وتركني لينام، أمضيت أنا بعض الوقت قبل النوم فرحًا جذلان مندهشًا من رؤى صديقي الشاعر الجميل.

الترجمة إلى الروسية !

ايجور يرماكوف شاعر ومستعرب معروف في الأوساط العربية. في غرفته الصغيرة في الدور الثاني بمبنى اتحاد كُتّاب وأدباء موسكو كان لقاء سريع. مبنى اتحاد الكُتّاب كبير، قديم، يتوسطه تمثال لتولستوي الشيخ.

إنه المبنى نفسه الذي وصفه تولستوي في «الحرب والسلام». والمبنى ذو طلاء أصفر، كثير من المباني المهمة في موسكو ذات طلاء أصفر لسبب أجهله. وحديقة المبنى التي يتوسطها تمثال تولستوي مغطاة بالجليد.

في غرفة يرماكوف كثير من الكتب العربية: روايات وأشعار ومجلات. وهناك صور أيضًا لمعين بسيسو ومحمود درويش وعبدالرحمن الخميسي. ويرماكوف رجل عملي سريع التفكير وسريع الكلام، ومندهش أيضًا تبرق عيناه بالاستغراب في كثير من الأوضاع العربية. أخبرني بأن إحدى قصصي القصيرة مترجمة إلى الروسية. وأن هناك عددًا من المقالات

مكتوبة عن أعمالي كتبها المستشرق ديمتري ميكولسكي الذي يتعذر الاتصال به لانفصاله عن زوجته، ليس له مكان ثابت، وتحدث بسرعة عن وضع الترجمة الآن. أصبح أصعب من ذي قبل. بعد «البيريسترويكا» سيقل الدعم الذي تقدمه الدولة لهذه الأعمال. لماذا لا يتقدم العرب لدعم مشروعات الترجمة؟ سيتم قريبًا ترجمة مختارات من أعمال الكُتّاب الفلسطينيين والإسرائيليين معًا. كُتاب إسرائيل والأرض المحتلة. الكُتّاب اثنين ينادون بالسلام من الجهتين... الآن تناقش في الاتحاد السوفيتي قوانين الملكية الخاصة. الفنادق مليئة برجال المال والأعمال من أوروبا وأمريكا، ولا أحد من العرب. هل يريد العرب أن يفعل لهم الآخرون كل شيء؟ دائمًا ينتظر العرب حتى تضيع الفرصة ثم يحاكمون الجميع. مازوشية. ربما لا يجب أن يلوم العرب على التواجد اليهودي في الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي الآن يبحث عن طريق جديد. ربما هو طريق ثالث بين الاشتراكية والرأسمالية، طريق يحافظ على المنجزات الاقتصادية ويفتح الطريق للديمقراطية. حركة الدعوة للديمقراطية لاتهدأ في الجمهوريات. ولهتوانيا تسعى للاستقلال - أعلنت فيما بعد - وسيشهد الاتحاد السوفيتي قيام الأحزاب لأول مرة. أين العرب وسط هذه التغيرات؟ ولماذا لا يفكر العرب في قيام مؤسسة عالمية للاستشراق تجتمع كل عام أو عامين لمناقشة قضايا الترجمة والاستشراق،

إن شيخًا واحدًا من شيوخ النفط يستطيع أن يتبنى هذا المشروع. ثم إن هناك مشروعًا لإصدار طبعة من مجلة «الأدب» السوفيتية بالعربية . طبعة تحتوى على الإنتاج العربي والسوفيتي من الأدب معًا . هل من يساعد في تمويل المشروع؟ سؤال قال لي أن أطرحه على العالم العربي. هل تعرف معنى ترجمة القرآن الكريم وبيعه في جمهوريات الاتحاد السوفيتي مستر إبراهيم؟ كان هذا آخر استفساراته وتركته لأستعد للسفر إلى كييف ومعي زميلي الشاعر محمد أبودومة. سألني ما رأيك في هذا الكلام. أجبت: إن المشكلة الدائمة أننا نحن الكُتّاب لن نكون أبدًا ملوكًا ولا حكامًا ولا رؤساء جمهوريات. ستظل نسمع مثل هذه الأسئلة ونظل حائرين لا نملك إلا أن نعيد ترديدها علّها تصل آذان أحد . فهل تصل فعلاً؟

قطار النهار

الرحلة إلى كييف شابها بعض التوجس، تشيرنوبل والإشعاع. هل لا تزال هناك بقايا للإشعاع، التليفزيون المصري بث منذ أيام خبرًا عن حالات السرطان التي بدأت تظهر على جلد الجيل الجديد من الأبقار في ريف أوكرانيا، وكيف لا ينصاع الفلاحون لأوامر السلطة السوفيتية ويذبحون هذه الأبقار ويبيعون لحمها ويأكلونه، لكن هل كان الخوف يمنعني من الذهاب إلى كييف، عاصمة روسيا القديمة، مدينة التلال السبعة والكنائس

والكاتدرائيات الباهرة؟ لقد نسيت خوفي كله بمجرد أن دخلت محطة السكة الحديد في موسكو بالليل لأستقل قطار النوم إلى كييف.

في المحطة ظلام، وسواد المعاطف والليل والأرض الرمادية والصمت انجليل للمسافرين، لمبات صفراء صغيرة خافتة مخنوقة ورائحة السكة الحديد التي تصاحب عمري كله، ولدت لأب يعمل في السكة الحديد بالإسكندرية، طفت في الصحراء الغربية حتى السلوم على الحدود مع ليبيا. أما الصحراء الشرقية فكنت أكتفي بحكاياته هو عن القطار الذي يصل إلى غزة. ومن قبل كان يصل إلى فلسطين ومات أبي وظلت رائحة السكة الحديد وحكاياته في روحي، وحين رحلت إلى القاهرة سكنت في منطقة إمبابة بجوار خط سكة حديد الجنوب، كنت في طفولتي أعظم من يقفز من القطارات ومنها. ودائمًا لا تفارقني رائحة المازوت الساقط بين العوارض وفوقها وبين القضبان. لكنني الآن سأركب القطار الروسي أشهر القطارات في تاريخ الأدب. لكن هل أخدع نفسي إلى هذا الحد؟ سأركب الآن قطارًا مكيفًا جميلاً، أنا وأبودومة، وأولجا فلاسوفا.

في غرفة القطار الصغيرة الأنيقة ذات السريرين جلست أنا وأبودومة، في العودة ستكون الغرفة ذات أربعة أسرة، وسيكون معنا قاديم الذي أرجئ الحديث عنه.

فى القطار السوفيتى لا يوجد حجز مستقل للنساء وآخر للرجال وربما فى أوروبا كلها. لم أسافر إلى أوروبا من قبل ولا أعرف.

لم يكن من الممكن النوم تلك الليلة ليس لأن الراديو يبث فى غرفة القطار المناقشات العاصية فى الكرملين حول الجمهوريات المتمردة. ولا لأننا لا نعرف كيف نطفئ هذا الراديو لكن لأنه كان لابد أن اخرج من الغرفة لأدخن سيجارة فى نهاية العربة وحين خرجت رأيت، ويا هول ما رأيت، ليل أبيض شديد البياض على جانبي القطار، التلال بيضاء والغابات منبسطة ترتفع هامات أشجارها السوداء السامقة فوق بساط أبيض لا ينتهى، بياض شاهق تكاد تسمع له صوتًا يدعو للسكينة والوداعة والأحلام، أنا مبهور بالشتاء الروسي، قلت لنفسي وأنا أتأمل أشجار الكستناء والميلاد العالية العارية وأتذكر ليالى دستوفسكى البيضاء فكيف إذًا أنام؟ لكنى نمت ساعتين، من الخامسة صباحا حتى السابعة، شبعت من بياض الدنيا وسكون القطار، ومن الذكريات التى راحت تتراءى فى ذهنى، وقلت أنام ساعتين لأستطيع التجوال بين تلال كييف وكنائسها وأتفرج على وجوه فتياتها ونسائها اللاتى لم يخلق الله مثلهن فى الوداعة والجمال الباهر. لكننا لم نمض فى كييف إلا ليلة واحدة لسوء الحظ. شاهدنا بالنهار متحف شهداء الحرب الثانية المفتوح فى الهواء، وتمثال «أم الأبطال» الضخم الشاهق الارتفاع ومتحف شيفتشنكو

شاعر أوكرانيا العظيم ورسامها العبقري الذي كان «قنًا» اشتراه فنانو بطرسبرج «لينينجراد» وأعتقوه لكنه لم ينعم كثيرًا بالحرية في السادسة والعشرين دخل في صدام مع القيصر نيقولا الثاني. رسم له صورة كاريكاتورية شوهاء. فسجنه القيصر في سيبيريا عشر سنوات ليعود شيخًا عجوزًا ولم يبلغ الأربعين بعد ويموت.

في كييف وفي مقر اتحاد الكُتّاب الأوكرانيين، التقيت مع البروفيسور ميكيتينكو رئيس تحرير أكبر مجلة أدبية في أوكرانيا الذي راح يتحدث عن العلاقات القديمة بين أوكرانيا وروسيا القديمة والبلاد العربية، وأنا تحدثت عن المشاريع السوفيتية العظيمة في مصر والتي كان لي الحظ أن أعمل في أحدها في مطلع شبابي لألتقي بخبراء من أوكرانيا ومن لينينجراد ومن أكثر من مكان في الجمهوريات السوفيتية. ثم حدثته عن الروس الذين هربوا إبان الحكم القيصري وجاءوا إلى مصر وأقاموا في الإسكندرية، وانشأوا أول وآخر جريدة في القطر المصري باللغة الروسية وعن الرسائل القديمة المتبادلة بين الشيخ محمد عبده وتولستوي الذي صور القوزاق على حقيقتهم كرجال أحرار. والذي كان مشروعه العالمي للسلام في رسائله إلى صديقه المصري وإلى غاندي أيضًا. وقلت له إن أولئك الروس الهاربين أسموا جريدتهم «أسكرا» أي الشرارة وإن هذا الاسم أطلقه أحد الأحزاب الشيوعية المصرية

المبكرة على نفسه. لكن الرجل وغيره لم يكن يريد الخوض في ذلك. وقلت له إننا نتحدث عن الآمال الكبيرة للشعوب. لا عن أحد بالذات. كان هناك حزن على الوجوه وكنت أفكر كيف استطاع هذا الشعب أن يعيش رغم كل ما مر به من ظلم وحروب ومؤامرات.

لقد كان في اللقاء أيضًا أكبر شاعر أوكراني الآن فاديم سكودا الذي لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد والذي سيكون لنا معه حديث مستقل. وكانت المستعربة أولجا فلاسوفا تترجم الحديث بيننا لثلاث ساعات خارقت إرهاقًا كبيرًا. لقد وجدتهم في كييف يعرفون الكثير عن شعرائنا وأدبائنا الكلاسيكيين. لكنهم يعرفون القليل عن الأجيال الجديدة والقليل جدًا فكانت فرصة لي ولأبي دومة أن نتحدث بإسهاب عن خريطة الرواية والشعر العربي الآن.

فاديم وفاديم

فاديم الأول هو فاديم سكودا واحد من أكبر شعراء أوكرانيا الآن. وفاديم الثاني هو طالب جامعي ولاعب كونغ فو ورفيق قطار الليل في العودة إلى موسكو. لقد أمضينا في كييف ليلة واحدة وعدنا في مساء اليوم التالي ولم نشبع بعد من المشي والجري في شوارعها المنحدرة حيث بنيت المدينة على تلال سبعة وبينها.

ولا من تباشير خضرة الربيع حيث يذوب الجليد في كييف مبكرًا عن موسكو. ولا من السكون المشبع بالجلال داخل الكنائس التي لا تهدأ حولها الحركة.

حـركـة الزائرين السـواح وحـركـة الزائرين من أهل المدينة الذين أتوا بالشموع للزواج ولطلب الرحمة للموتى. يخيل إليك في كييف أو موسكو أن كل الناس تزور الكنائس الآن وحركة ترميم الكنائس واضحة في كل مكان. وفي موسكو يجمعون التبرعات لإعادة بناء كنيسة المسيح المخلص التي هدمها ستالين وأقام محلها حمام سباحة. والمثير - لي على الأقل - في الكنائس التي دخلتها كان وجه المسيح. ليس هو الوجه الشاحب في الأيقونات الأوروبية، ولا المصرية أيضًا. هنا وجه المسيح أكثر امتلاءً وإشراقًا ونورًا، مسيح عليه مسحة من فلاحي الريف الأوكراني.

لم تشبع من تباشير الخضرة ولا ذوبان الجليد ولا صعود التلال ولا رؤية المتاحف ولا الحديث العفوي العابر مع بولا وأولا وغيرهما من الفتيات والسيدات في الفندق والطرقات من اللاتي يحلمن بزيارة أمريكا وكندا، ولا من الأحاديث السريعة المتوترة مع إيجور الذي استقبلنا عند وصولنا أو إيجور الثاني الذي جاء يوصلنا للقطار عند رحيلنا.

ولما كدت أسأل إيجور الثاني عن سر انتشار اسم إيجور تذكرت الملحمة الروسية القديمة عن حملة الأمير إيجور على الغزاة من قبائل القفجق وكيف قام بالحملة كلها لأنه فاته أن يشترك مع أمراء روسيا في الحملات السابقة فذهب وحده بدافع من تأنيب الضمير ليلاقي هزيمة كبيرة وتأسره القبائل وتصبح

حملته تراجيديا يونانية بكل معنى الكلمة. لقد كان الأمير إيجور من هنا، من أوكرانيا وكانت حملته فى القرن الثانى عشر الميلادى لكن كلاً من «الإيجوريين» الذين قابلناهما كانا على عجل؛ لأنهما يعملان فى الجمعيات الشعبية الكثيرة التي انفجرت في كل مكان تطالب بالديمقراطية.

كان فاديم «الأول هو الشاعر فاديم سكودا كما قلت، أتى إلينا فى الفندق فى الساعة الرابعة بعد الظهر يوم رحيلنا يحمل كيسًا من البلاستيك داخله زجاجة من الفودكا وشريط طويل من السجق وعدة أرغفة محشوة بلحم البقر وبطيخة صغيرة مملحة وقال إنهم فى أوكرانيا يحبون أن يأكل الضيوف من عيشهم وملحهم.

اعتذر لنا عن ضيق الوقت الذى لم يعطنا الفرصة لنرى الريف الأوكراني وكرم فلاحي أوكرانيا وتكلم عن أحلامه الكبيرة في دراسة مقارنة بين الفلكلور الأوكراني والمصرى خصوصًا، وكنت طوال الحديث مبهورًا من دخوله علينا بالكيس البلاستيك البسيط وبالطعام والرغبة البسيطة الجميلة أن يقاسمنا الخبز والملح. لقد تعبت أولجا فلاسوفا من الترجمة بيننا لأننا اندفعنا أنا وهو فى حديث طويل من القلب بعد أن تركنا الشاعر أبو دومة ليشترى غطاء رأس «شبكة» روسية، لكن أولجا الرقيقة تحملت عناء الترجمة كلها لثلاث ساعات كاملة.

مما يبهر فاديم سكودا أن تعداد جمهورية أوكرانيا حوالى اثنين وخمسين مليونًا وهو رقم قريب من تعداد جمهورية مصر. ومما يبهر فاديم سكودا أن تاريخ المصريين يمتد للوراء لخمسة آلاف سنة وأكثر ومما يوافق عليه فاديم السلام في الشرق الأوسط. السلام الردىء أفضل من حرب بلا طائل. هكذا قال أكثر من شخص قابلته. ولأنى كنت ألمح إحساسهم بأنهم ضحوا كثيرًا من أجلنا وغيرنا من شعوب العالم الثالث كنت أسكت بعد أن كنت أقول إنه لا أحد يكره السلام ولكن العدل هو المطلوب ولا معنى للسلام دون عودة الحقوق العربية وقيام الدولة الفلسطينية. وقلت لفاديم «الثانى» في القطار وكنا أربعة في غرفة واحدة. أنا وأبودومة وأولجا فلاسوفا وهو: إن النزوع إلى الديمقراطية في الاتحاد السوفيتى يكون خطيرًا إذا أدى إلى استقلال الجمهوريات المتمردة. إن الغرب يذكى هذا النزوع ليحدث التفكك المخيف للاتحاد السوفيتى. لكنه سكت ثم قال: لتذهب لاتفيا وليتوانيا وأستونيا وغيرها إلى الجحيم. إنها جمهوريات لا معنى لها. إن شعوب الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفيتى تعيش في وضع أفضل من شعوب روسيا القديمة لأنها تحافظ على دخلها القومى وتأخذ نصف دخل روسيا أيضًا. لقد كلفتنا كوبا وأنجولا وغيرهما الكثير. هكذا قال أيضًا. وتأملته هو الصغير ذو العشرين عامًا تقريبًا. وبدا لى شديد الثقافة والذكاء. كان يتحدث معى بالإنجليزية

مباشرة ومع أولجا فلاسوفا بالروسية، وهو الأوكراني، ومع أبي دومة بالمجرية ـ أبو دومة حاصل على دكتوراه في المجر، وتذكرت الشخصيات المضطربة شديدة الذكاء عند ديستوفسكي، رغم أنها ليست أوكرانية. وكان فاديم أيضًا مولعًا بالباراسيكولجي ولديه عناوين العرافات في موسكو وكييف. وختم فاديم الصغير الحديث بقوله: لقد قتل ستالين ثلاثين مليونًا. وقتل النازي في الحرب عشرين مليونًا من الشعوب السوفيتية. إن أجمل الناس ماتوا بين ستالين والحرب ولم يبقَ إلا الصراصير ونحن أبناء الصراصير. كان قاسيًا في تعبيره لكنه كان ممتلئًا بالحزن والغضب.

نحن الآن في موسكو وفي فندق آخر، فندق روسيا الضخم الواقع في مركز المدينة أمام الكرملين ويتكون من اثني عشر طابقًا وفي كل طابق سبعمائة غرفة، يا إلهي، يقولون لأنه احترق من قبل وعليك أن تتخيل كيف كان الحريق. للفندق أربع بوابات لو ضللت الطريق ودخلت من واحدة غير التي تأخذك لغرفتك لوجدت نفسك في متاهة بين الغرف والطوابق. ذلك حدث معي كثيرًا في مطعم الفندق الكبير، في جناحنا الشرقي ترقص بالمساء وتغني فرقة موسيقية ترتدي ثياب مادونا الأمريكية. وأمام الفندق زحام من سيارات التاكسي التي سمح لها بحرية العمل فتركت الشوارع وجاءت تبحث عن السياح.. إن ميزة هذا الفندق الوحيدة أنه قريب من الكرملين، فكنت في

المساء وبعد كل عشاء أخرج إلى الميدان الأحمر لأتفرج مع المئات من السياح وأهل موسكو على تغيير حرس متحف لينين حيث يثوي جثمانه المحنط الذي لم يفسد بعد.. تغيير الحارسين يتم كل ساعة يقفان خلالها بلا حركة ولا نامة وهما في العادة شديد الشبه ببعضهما، في الوجهة والجسم وبالطبع الملابس والسلاح. لقد ظننت في البداية أنهما تمثالان من الشمع..كانت مشكلتي أمام الكرملين هي التصوير. لقد انتهت بطارية الفلاش معي ولم أجد في موسكو كلها بطارية فلاش، ثم انتهى الفيلم أيضاً فأصابني القيظ. إن أجمل الصور أمام الكرملين هي تلك التي تأخذها بالليل وليس بالنهار حيث تسقط الأضواء المعلقة أعلى محل (غوم) الضخم على جدران الكرملين وقبابه الحمراء فتصبح قطعة ساحرة من الجمال. هذا هو الكرملين الذي أراد نابليون هدمه والحمد لله أنه لم يفعل. هذا هو الكرملين الذي بناه القياصرة وحاول ستالين أن يبني ما هو أعظم منه فبنى سبع عمارات شهيرة في موسكو على الطراز نفسه يقولون الآن إنه بناها بالمعتقلين السياسيين وإنها جاءت شديدة الإتقان؛ لأن أي خطأ كان كفيلاً بأن يجعل الحرس يلقون بصاحبه من أعلى. طبعًا لم يفسر لنا أحد ماذا كان يحدث حين يتم الخطأ في الأدوار الأولى!

أمام الكرملين أكثر من مصور يعلق لافتة أنه مقابل اثني عشر روبلاً يصورك ويرسل إليك الصورة في

بلدك أينما كنت في العالم وكعادتي أشك في هذه الأشياء، حاولت أن يصورني ويعطيني الصورة في اليوم التالي لكنه طلب ستة دولار. كذا، وقلت له سأعود مرة أخرى ومعي كاميرا لا ينقصها شيء ومن يدري قد يحدث ذلك حقًا.

الدهشة مستمرة

بدأ الجليد يذوب، انتهت العاصفة الثلجية وارتفعت الحرارة فوق الصفر، ومشت مياه جداول صغيرة على جانبي الشوارع، وأمضينا يومًا في ضاحية (زاجورسك) حيث الكنائس العتيقة ووفود السياح والأعراس ويومًا آخر في متحف بوشكين بقلب العاصمة. نماذج الرسوم والمنحوتات من كل بلاد العالم شيء رائع حقًا، ولكنها لم تدهشني كما أدهشني القسم المصري الخاص بالعصر القبطي كيف وصلت هذه اللوحات والأيقونات إلى موسكو؟ لابد أن مثلها أضعافًا في متاحف أخرى. كيف لا نعرف الكثير عن أولئك الفنانين المصريين القدامى من العصر القبطي. وفي نفس اليوم الأحد، الخامس والعشرين من شباط (فبراير) كانت مظاهرة ضخمة منظمة قريبة من المتحف، مظاهرة تضم ربع مليون مواطن سوفييتي أغلبهم من موسكو، لم يكن من السهل أن نترك المظاهرة دون أن نطل عليها بعض الوقت. لقد سبق وتم الإعلان عن هذه المظاهرة من قبل. وحين ذهبنا وجدنا الميدان الكبير محاطًا بقوات

الأمن من كل الأزقة، واحتاج المرور أن نتحدث إلى أحد الضباط الذي لم يسمح لنا بالعبور لكننا اقتربنا بقدر الإمكان،كان أعلى الأصوات بعيد تقييم الثورة البلشفية كلها، واوجز ثورة تشرين الأول (أكتوبر) في أنها انقلاب بلشفي بعد أن كان القيصر نيقولا الثاني تنازل عن الحكم في شباط (فبراير) من عام ١٩١٧ وبشكل ديمقراطي لقد وعد البلاشفة الشعب بوعود خيالية براقة.

الأرض لمن يزرعها والمصانع للعمال ثم لم يحدث ذلك أبداً.. هل كان أحد في الدنيا يحلم بأن يسمع في قلب موسكو ذلك؟ لقد امضينا اليوم نتحدث انا وزميلي الشاعر محمود أبودومة فيما نسمعه ونراه كل يوم، وحين تغدينا في نادي اتحاد الأدباء في اليوم التالي التقينا مع الشاعر شوكت نيازي رئيس اتحاد الأدباء في طاجكستان الذي جاء يرانا ويعتذر عن عدم قدرته على اصطحابنا إلى طاجكستان بسبب الاضطرابات هناك لكننا حين ذهبنا لإلقاء محاضرة نظمتها لنا عزة الخميسي مع اتحاد الكتاب في جامعة باتريس لومومبا عرفنا أننا أول أديبين مصريين يدخلان هذه الجامعة منذ إنشائها، لم نصدق، كنّا نظن أن كثيرًا من المصريين تعلموا في هذه الجامعة خاصة أيام الناصرية. قيل لنا لم يحدث ذلك، كل من اتي إلى الاتحاد السوفيتي كان يوفد إلى جامعة موسكو أو غيرها في إحدى الجمهوريات لكن باتريس لومومبا لم يدرس فيها أحد، لم يدرس أحد في

جامعة الشعوب، ظلت بالنسبة إلى مصر في كل العهود مكانًا لتخريج الكوادر الشيوعية، مكان مخيف، ولذلك حتى لا يوجد بها كتب أدبية مصرية،

لا روايات ولا أشعار لأحد، طيب، إذا كان ذلك حدث مع الحكومات كيف لم يقدم أي أديب من الذين زاروا موسكو كتبًا لهذه الجامعة؟

ما علينا من أسف. تبدأ المحاضرة، كان لقسم اللغات الشرقية، طلاب من السوفييت الذين سيصبحون فيما بعد مستعربين. ودار حوار طويل حول الرواية والشعر. والرواية والشعر الفلسطيني، وأيضًا كامب ديفيد والانتفاضة الفلسطينية، لكنني ظللت مندهشًا من أننا أول أديبين عربيين يدخلان هذه الجامعة.

وزالت الدهشة بالليل حين عزمنا نيقولاي تشير كاشن، واحد من أبرز الروائيين السوفييت الآن. رواياته كلها تدور في عالم البحار وعادة ما تنزع إلى التسجيل، فهو يتابع الكوارث البحرية ويحولها إلى مواقف إنسانية، مواقف للتحدي والإرادة الإنسانية كان كرمه فائق الحد على بساطته، اعتذر لنا بلباقة عن صغر حجم البيت السوفيتي ونحن نتناول العشاء في ركن من المطبخ معه وزوجته وصديقة وصديق لهما يعملان بالسينما، مخرج من طشقند لقد غنت لنا ابنة نيقولاي الصغيرة أغنية مدرسية بالإنجليزية، وشعت ابتسامات زوجته في المكان شعورًا بالبهجة،

وقرأ علينا نيقولاى بعض آيات القرآن الكريم فلقد كان ضابطًا بحريًا وطاف بكثير من البلاد العربية، الموانئ العربية، ويحب الإسكندرية وبورسعيد لقد جاء إلى الإسكندرية ضمن القوات البحرية التى جاءت تحرس الشواطئ المصرية خلال حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

وهو بعد نفسه لكتابة رواية عن الأسطول السوفيتى التى غرقت إحدى قطعه الكبيرة أمام شواطىء بورسعيد عام ١٩١٦ وهو أيضًا سمى ابنه ذى الثمانى سنوات باسم عربى هو «سعيد» وهو مشغول بعمل سيناريو مع صديقه المخرج الذى معنا على العشاء عن أحد جنرالات البحرية السوفيتية الذى قاد تمردًا بحريًا ضد بريجينيف عام ١٩٧٥ وتم إعدامه. للأسف نسيت اسم هذا الضابط الجسور الآن وضاعت منى المفكرة التى بها اسمه، قلت له وللمخرج الشاب اتمنى أن يكون لفيلمكما من الشهرة ما كان ولايزال لفيلم إيزنشتين المدرعة بوتومكين. ذلك كان عن مدرعة مشهورة فى ثورة مشهورة عام ١٩٠٥! وهذا عن مدرعة منسية وضابط لم يسمع به أحد ولكن الظروف اختلفت الآن.

وانتهت الليلة بقصائد من الشعر لصديقى محمد أبوسومة وعزف على الجيتار لنيقولاى تشير كاشن وكانت ليلة نادرة.

في صباح اليوم التالي التقينا بمعهد الاستشراق مع المستشرقة الكبيرة فاليريا كيربتشنكا ورفيقاتها من المستشرقات، فاليريا تعرف الكثير عن الأدب العربي عامة والمصري خاصة، ولها كتاب مميز عن القصة والرواية المصرية، وزميلاتها من الجيل الجديد يتابعن حركة الشعر الحداثي الجديد وواحدة منهن تعد كتابًا عن الرواية في سوريا ولبنان. والتقينا أيضًا بكونستانتين تشو جونوف رئيس تحرير مجلة الآداب الأجنبية التي ترجمت مؤخرًا رواية نجيب محفوظ (أسمد الله مساءك) والذي أبدى رغبة طيبة في تلقي الأعمال الأدبية المصرية الجديدة. ورحنا ننتقل من مجلة إلى مجلة ومن مكان إلى مكان محوطين دائمًا بودٍ نادر حتى كانت الليلة الأخيرة.

اللقاء الأخير

في ليلتنا الأخيرة بموسكو احسست أن زيارتنا كانت قصيرة، وخرجت أنا وأبودومة لنلقي نظرة أخيرة على الكرملين.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً ونحن لا ندري. لم يكن هناك أعداد كبيرة من السياح. كانت هناك نسمة باردة كأنما العاصفة التي استقبلتنا ستعود وتودعنا، لكننا لاحظنا أن هناك شابين في العقد الثاني من عمريهما ينظران إلينا ويبتسمان وليس صعبًا أن نتعرف على أحد في موسكو، يكفي أن تبتسم فيبادلك الابتسام وتتحدث فتجد قلبه مفتوحًا

للحديث معك رجلاً كان أم امرأة شابًا أو فتاة. بسرعة تحدثنا معهم كان أحدهم يتحدث الإنجليزية بصعوبة لكن بوضوح وقواعد سليمة اسمه أصلان هكذا قال: طلبت منه أن يعيد الاسم فضحكت تذكرت صديقي الكاتب إبراهيم أصلان وكذلك حدث لأبي دومة فانطلقنا نضحك ماذا كان يحدث لو كان إبراهيم أصلان معنا كانت تكون مصادفة جميلة. سألته هل أنت من موسكو؟ كنت أخمن أنه من بعيد وقال: إنه ليس من موسكو وإنما من إحدى جمهوريات البحر الأسود الصغيرة. قلت هذا سر اسمك، إن أصلان هي في الأصل أرسلان التركية هكذا قال لي إبراهيم أصلان يومًا نقلاً عن يحيى حقي قال الشاب ربما فالأتراك احتلوا بلادهم يومًا ما وجمهوريتهم نصفها مسلمون ونصفها مسيحيون. وهو مسيحي وزميله مسلم واسمه آلان وضحكنا وكان آلان لا يعرف الحديث بالإنجليزية فبدا خجلاً وزميله يترجم لنا حديثه قال أصلان: إنه يقوم بدراسة مقارنة بين أسلوب همنجواي وتورجنيف ولما عرف أننا أدباء فرح كثيرًا وفرحنا نحن أيضًا.

دعوانا إلى سهرة معهما في الفندق، كان ينزلان في نفس فندق روسيا، والغريب أنهما كانا ينزلان في نفس الطابق الذي نزلنا نحن فيه.

في غرفتهما لم نتحدث في الأدب قالا لنا إنهما في بلادهم يحترمون الأكبر سنًا ويقدمون له أجمل ما

عندهم كرمًا وتقديرًا، ولكنهما الآن في موسكو ليس لديهما غير الفودكا والبيبسي كولا، وإنهما يأسفان جدًا لأنه لا يوجد شيء آخر. لقد بدوا لنا مثل كل من قابلناهم يتحدثان بطيبة مذهلة، وتحدثنا ولكن عن أحوال الناس، لم يختلف حديثهما عن كل ما سمعناه في الطرقات أو القطارات أو المظاهرة، الاختلاف كان في الآن وحده. لقد صمم أن يتحدث بالروسية التي لا نعرف منها إلا كلمات قليلة وقال: إننا سنفهم ما يقول رغم فارق اللغة، كان يتحدث بحماس وانفعال وقوة وكنا نفهم ما يقول ونقاطعه بفهمنا حين نعيد ما قاله بالإنجليزية فيترجمه له أصلان فيصفق طربًا إذ أننا فهمنا بالضبط، كانت مشكلة الآن أنه يبحث عن ديانة، إنه مسلم ولكنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يزيح التراب الذي سببته سبعون سنة من الحكم الإلحادي.

الرحلة الثانية
باريس للمرة الأولى

مكان قديم في القلب

ما الذي تشكله باريس لكاتب مثلي لم يرها من قبل. بل لم ير من أوروبا كلها إلا موسكو وكييف وفيينا بسرعة، أو طياري بلغة المرحوم حسين فوزي؟

باريس قراءة متراكمة. حقًا. لكنها أيضًا حلم مراوغ. ليس فينا، معشر الكُتّاب، من لم يحلم بباريس، وليس مهمًا بعد ذلك أن يحبها أو يكرهها. وفي مصر نعرف باريس منذ الطفولة الباكرة.

«اتجهت السفن سرًا من ميناء طولون على البحر المتوسط لتصل إلى الإسكندرية في غفلة من الأسطول البريطاني، الذي كان يبحث عنها لتدميرها، واستولت الحملة الفرنسية على الإسكندرية بعد مقاومة من أهلها ومحافظها محمد كريم، ثم اتجهت الحملة إلى القاهرة فهزم نابليون وجنوده المماليك وفر مراد بك إلى الجنوب وإبراهيم بك إلى الشام،

ودخل نابليــون القــاهرة زاعــمًا أنه جــاء لتــأديب المماليك، والحقيقة أنه جاء يقطع طريق إنجلترا إلى الشرق وطامعًا في تكوين إمبراطورية فرنسية».

تلاحقنا منذ الطفولة الأسئلة عن أسباب الحملة الفرنسية ونتائج الحملة الفرنسية وثورات المصريين وفضل شـامـبليـون في اكـتـشـاف أسـرار اللغة الهيـروغليفـيـة .. مـا أعجب فرنسـا هذه في الوجدان المصري. ننسى أن الحملة الفرنسية كانت أول مظهر من مظاهر الاستـعـمـار في العـصـر الحـديث، ونذكر دائمًا أنها كانت بداية اليقظة القومية والوطنية وأنها فـاجـأتنا نحن - المـتـخلفـين - في ظلام العصر العثمانية بالعلوم الحديثة التي لا تزال تدهشنا. وما أعجب فـرنسـا هذه، فنعرف كيف احتلت المغرب العربي وقسوة الاستـعـمـار الفـرنسي - رقم المليون شهيد الجزائري فيه من قسوة الاستعمار قدر ما فيه من اسـتـبـسـال الجـزائريين - و ننسى دائمًا دورها الاستعماري، ولا ننسى أبدًا كتاب رفاعة الطهطاوي تخليص الإبريز في تلخـــيص باريز، وأثره الفكري والسياسي على النخبة المصرية، ولا ننسى رفاعة نفسه الذي لولا ذهابه إلى فرنسا ما ساهم المساهمة الكبرى في تاريخ مـصـر السـيـاسي والاجـتـمـاعي، ولاننسى نهـضـة مـحـمـد علي الذي اتكأ بقوة على الفرنسيين «الكولونيل سيف - المعلم سليمان» - سيمونيين - البعثات إلخ، ولا ننسى مفكرينا الكبار أدباءنا من نوع طه حسـين وحسـين هيكل وتوفيق الحكيم... وما

اعجب فرنسا هذه دائمًا. يفتتنا في مشروع قناة السويس غرام إسماعيل باشا بأوجيني وننسى ظلم شركة قناة السويس نفسها وتعسفها وتحكيم نابليون الثالث الظالم وما جلبته القناة على مصر من وبال.. وهكذا يظل هذا اللغز غير مفهوم، مستعصي الحل، في أمر باريس وفرنسا منذ ظهور الفرنسيين على مسرح العصر الحديث حتى حرب الخليج، رغم اننا خسرنا الرهان على باريس.

بهذا الإحساس ذهبت إلى باريس، إحساس لم أسع إليه، بل فطنت إليه بعد عودتي، ولكم ادهشني ذلك، وادركت أنه لا معنى لمحاولة فهم ذلك اللغز. باريس مدينة لها في القلب مكان وكفى.. ورغم كل ما قرأته عن باريس أو رأيته في السينما فحين تتاح الفرصة لرؤيتها يبدو الأمر كأنما كان حلمًا بعيدًا وتحقق. حلمًا جميلاً. ولا يهم إذا خاب معيك فيها او طاب. هكذا تلقيت الدعوة الكريمة من معهد العالم العربي لقضاء اسبوع في باريس في شهر مايو من هذا العام ١٩٩٢ بالضبط في الفترة من الثامن عشر حتى الخامس والعشرين من الشهر المذكور، وللاشتراك في ندوة عن الرواية المصرية مع عدد من الم كُتّاب الرواية المصريين هم : شيخنا إدوار الخراط وصنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم وإبراهيم اصلان.. لقد كان جميلاً بحق من ديدر الين عرودكي، وفاروق مردم بك، الا يحملانا أكثر من الاشتراك في ندوة واحدة، فاتيح لنا من الوقت

قدر طيب نستطيع فيه المشي في باريس، كنت مشتاقًا لرؤية عدد من الشباب الكُتّاب، ربطت الصداقة بيني وبينهم عن بعد، أو عبر لقاءات سابقة في بغداد والقاهرة، شربل داغر والحبيب السالمي وعيسى مخلوف وخميس خياطي وكاظم جهاد والشاب الوديع جميل حتمل، لقد بدا لي بعد حرب الخليج أنني لن أرى أحدًا ممن عرفت أبدًا بعد ذلك.

هكذا شملني إحساس عارم، ولما قابلتهم في اليوم التالي لوصولي، أحسست كما لو كنت أراهم كل يوم. شعور غريب حقًا، مشاعر كثيرة اكتشفت أنها كانت كاذبة وتسببت فيها حرب الخليج، على أي حال الكذب في هذه الحالة كذب المشاعر أمر طيب فليس أجمل أن ترى أصدقاءك فتشعر أنهم لم يكونوا بعيدين عنك، لذلك تركت لجسدي أن يحقق مطالبه، ولم تكن غير المشي في باريس، لم أعد قادرًا منذ اليوم الثاني لوصولي على الجلوس في مكان واحد أكثر من دقائق، تركت جسدي ونفسي للشوارع تسلمني للشوارع.

عن المشي

كان الدكتور ثروت عكاشة معنا على الطائرة نفسها التي أقلعت من القاهرة ظهر يوم الإثنين الثامن عشر من مايو، كان مدعوًا مثلنا من معهد العالم العربي لكن كشخصية ثقافية بارزة تشارك في افتتاح معرض الكتاب الذي سيقام لمدة أسبوع، كنت أعرف ذلك وكنت قررت أن أذهب إليه بالدرجة الأولى حيث

بجلس لأقدم إليه روايتي الجديدة «البلدة الأخرى» وأقدم إليه نفسي. وقلت إنه سيكون لدي أربع ساعات كاملة هي تقريبًا زمن الرحلة من القاهرة إلى باريس وهي فرصة طيبة للحديث مع مثقف وفنان كبير مثل الدكتور ثروت عكاشة. لكن الذي حدث أني لم أفعل ذلك؟ لماذا حقًا لم أفعل ذلك وأنا من عشاق كتابات الرجل الأدبية والفنية ومن العارفين تمامًا بفضله على الثقافة المصرية أيام كان وزيرًا مسئولاً. مولع أنا بتضييع الفرص. مولع بذلك بالمعنى العميق للكلمة. لم يكن هناك في رحلة كهذه أجمل من فرصة اللقاء بثروت عكاشة لكن هذا ما جرى. والغريب أني لا أشعر بأي ألم على ضياع الفرص، كما لا أفرح حين أغتنمها. تتساوى لدي الذاكرة والنسيان، ميت يمشي في حي، أو حي يمشي ميت. هكذا أشعر حين أتمنى ما قررت أن أتذكره بشدة ما الذي فعل بي هذا؟؟ وهل كل الذين ولدوا مثلي في النصف الثاني من الأربعينيات يتساوون معي في هذا الحال؟

لكن أعود لأحدثك عن المشي الذي اقتضى له جسدي بعد هبوط الطائرة إلى أرض مطار أورلي. لن أحدثك عن دهشتي البالغة وأنا أرى أرض فرنسا الخضراء كلها من الطائرة. لن أعيب على بلدي أنها صحراء. هكذا خلقها الله. ولن أعيب على أهلها أنهم يتركونها صحراء. هكذا خلقهم الله أيضًا!

بعد نصف ساعة من خروجنا من المطار وصلنا إلى فندق صغير لا بأس به هو فندق رويال كاردينال الذي يحمل رقم (واحد) بشارع المدارس (زى ديزيكول) هو إذًا فندق لا يمكن أن ينسى برقمه واسمه وموقعه. نزلت أنا بالغرفة رقم (٣٨) وأصلان بالغرفة رقم (٤٠) ونزل إدوار الخراط بفندق آخر قريب منا ثم أستطع أن أحفظ اسمه. ونزل صنع الله إبراهيم الذي كان قد سبقنا بيوم في فندق بعيد جدا. ولم يبق إلا بهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم اللذان سينزلان معنا في نفس الفندق كما قيل لنا.

يحدث في مثل هذه الحالات أن الإنسان يجب أن يرتاح قليلاً. ويغير ثيابه بعد أن يأخذ حمامًا ساخنًا. وماكدت أشرع في ذلك حتى سمعت طرقًا على باب الحجرة. فتحت لأجد أمامي جميل عطية إبراهيم. لقد وصل قبلنا إذًا وعرفنا أنه ينزل في الغرفة رقم (٢٤) يحدث في مثل هذه الحالات أيضًا أن يفرح الإنسان باللقاء ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الفرح بلقاء جميل عطية إبراهيم يكون مضاعفًا. يتميز جميل بين الأدباء المصريين بالبساطة المذهلة والصدق النادر. وكان أول سؤال بادرني به هو هل معك سجائر كليوباترا؟.. هكذا قبل أن نجلس.

بعد دقائق كنا، جميل وأنا وأصلان، نترك الفندق، يصحبنا جميل إلى الحي اللاتيني القريب جدًا كما عرفنا منه. لقد بدأنا المشي أو خيل إليّ ذلك لكن

الذى حدث أننا لم نمش كثيرًا. انتهى المشئ بسرعة تلك الليلة. كنت أنا سارحًا فى عدد السنين التى مرت منذ قرأت رواية سهيل إدريس (الحى اللاتينى) ربع قرن وربما ثلاثون عامًا. لا أقل من ربع قرن على أى حال. وقال لى جميل إن الحى اللاتينى يسمى الآن بالحى العربى لكثرة الطلاب العرب بالسوربون وجامعة باريس. لم أحاول التحقق من هذه المعلومة التى سمعناها من كل شخص تقريبًا. ما معنى أن يحاول الإنسان التحقق من معلومة لا تفيد. لقد انتهى الزمن الذى كان فيه المثقفون يذهبون إلى باريس ويعودون لبعث الهمة والنهضة فى شعوبنا العربية. الآن يعودون ليسوقوا على الشعوب ويرشدوا الحكام لأسهل الطرق لتضليل الشعوب، ويكرهون الشعوب.

وما كدنا ندخل شارع سان ميشيل ونقترب من المقاهى والمطاعم التى يحفل بها الحى اللاتينى حتى فاجأنى جميل برغبته الثانية وهى أن يأكل طعمية ـ فلافل ـ مصرية. كان سؤاله الأول فى الفندق عن السجائر كليوباترا. والثانى الآن عن الأكلة المصرية الشعبية الشهيرة. لقد قرر جميل أن يدعونا إلى الفلافل على حسابه. جميل قادم من جنيف. حيث يعيش ويعمل بالأمم المتحدة مع بهاء طاهر. وهو قادم إلى باريس برى مصر فينا. أدركت ذلك. وتركته يسحبنا إلى مطعم مصرى. لكنه نظيف طبعًا وفكرت فى جميل عطية إبراهيم الذى حين يزور القاهرة لا أراه إلا جالسًا على مقهى زهرة البستان بدخن الجوزة

المصرية الشهيرة، «الشيشة»، والذي قال لي يوماً وما زال يقول، إن الحياة في سويسرا تشبه الحياة في اجزخانة، وهذا أمر ممل جداً، أدركت عمق رغبته أن يرى مصر فيناً، وتوقعت أنه لنا يصحبنا بعد ذلك في جولات باريسية، وهذا ما حدث بالضبط. اكتفى جميل بالمسافة القليلة من الفندق إلى معهد العالم العربي كل يوم ليلتقي معنا بالليل بعد عودتنا من المشي الذي لم نبدأه بعد. لقد انتهى المشي بسرعة تلك الليلة وقال جميل إنه يعرف باريس جيداً وإنه لن يمشي بعد ذلك أكثر من سبع دقائق كل يوم، قال ذلك ضاحكاً، وكنا نقف أمام وتحت تمثال سان ميشيل نتفرج على النافورات المائية والقديس الجميل المعلق عالياً وجماعات السواح، ونقرأ اللافتة السفلية عن بطولات الفرنسيين في مواجهة النازية وعدنا إلى الفندق نسأل عن بهاء طاهر الذي لم يصل بعد من جنيف.

كان مفاجئاً لنا مساء اليوم الأول أن يستمر النهار لحوالي العاشرة مساء، لم أكن أحب مادة الجغرافيا لذلك نسيت أية معلومات ممكنة عن طول النهار وقصر الليل في ربيع وصيف فرنسا، أذهلني النهار الأبيض الرائق، قال جميل : إنه يحدث في بعض بلدان الشمال الأوروبي أن يستمر النهار حتى الساعة الثانية عشرة مساء، يحدث ذلك في هلسنكي في الصيف مثلا، ولا أعرف ما الذي جعلني أتذكر شهر رمضان والصيام وقلت إذاً يمكن تعذيب أي شخص بإجباره على الصيام في هلسنكي، لكن جميل ضحك

وهو يقول لقد كانت هذه مشكلة للجالية العربية في هلسنكي فعلاً لكنهم، العرب استطاعوا استصدار فتوى تبيح لهم الإفطار على مواقيت تركيا.

لم نذهب إلى اللوفر

كان ذلك عجيباً بالنسبة لي، لم يحدث ذلك عمداً، لكنه الوقت القليل الذي لدينا. أخذت منا كنيسة نوتردام نهاراً كاملاً. تلكأنا قبل الوصول إليها عند السوربون، وأخذنا بعض صور جوار مونتيني في شارع المدارس وأخرى جواري تمثال كورني خلف السوربون ثم قطعنا سان ميشيل وتلكأنا كالعادة كلما مشينا في هذا الشارع أمام وأسفل سان ميشيل نفسه، الملاك الحارس الجميل ذو القسمات الأبولونية الذي عرفه المصريون بشدة بعد الانفتاح الاقتصادي عام ١٩٧٢ باسم (سان مايكل) ماركة البلوفرات الصوفية التي كانت تستورد بكثرة ذلك الوقت. وعبرنا الضفة الأخرى لنهر السين لنقف في الباحة المزدحمة بالسياح الأكثر وبالحمام أيضاً أمام (نوتردام دي باري) وعلى الفور فكرت أنه لا أحد من جيلي من أبناء المدن المصرية لا يعرف كنيسة نوتردام من الفيلم الجميل المأخوذ عن رواية فيكتور هوجو (أحدب نوتردام) الفيلم الذي مثله أنتوني كوين وجينا لولو بيريجيدا. وهو الفيلم الثاني في تاريخ السينما العالمية عن هذه الرواية، جذبني أمام الكنيسة تمثال على جانب الباحة الواسعة يقف منفرداً تكاد تخفيه

الأشجار العالية، تمثال قديم شاحب صامت لفارس عجوز على حصان ضامر، اقتربت لأقرأ وأعرف أنه تمثال شارلمان العظيم. يا الله ذلك الذي راسل الخليفة هارون الرشيد والذي أرسل إليه الرشيد مزولة كانت أعجوبة بالنسبة للفرنسيين ذلك العصر. هذا رجل من عصور الظلام أدرك القيمة العلمية للعرب، لكنه بدا لي متعبًا من طول التاريخ الذي مر به وعليه في هذا المكان تحت المطر والريح وزرق الحمام والنظرات اللامبالية للسياح الذين تستدرجهم الكنيسة العظيمة بسرعة وتبتلعهم..

كان إدوار الخراط هو دليلنا في هذه الرحلة، وفي غيرها بالتبادل، وكان دليلنا في الليل الشاعر المصري المقيم بباريس منذ سنوات (محمد سيف) وهو شاعر عامية من نوع خاص جداً، قليل الشعر، مكين في ذاكرة الشعراء، ومعه الباحث الشاب أنور مغيث الذي يجهز الدكتوراه على يد الفيلسوف والباحث الاقتصادي الشهير جورج لابيكا حول (الرؤية المصرية للماركسية منذ القرن التاسع عشر). إنها رسالة دكتوراه شديدة الأهمية استطاع فيها الباحث أن يصل لوثائق نادرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تترجم للماركسية في مصر، وسوف تناقش رسالته مع مطلع العام الدراسي القادم، أي في خريف هذا العام.

وأخذ منا متحف بومبيدو نهارًا آخر، وأخذ متحف الانطباعيين نهارًا ثالثًا، الحقيقة أخذ نهارين لأننا في المرة الأولى فوجئنا بإضراب موظفي المتحف فرحنا نتسكع حول برج إيفل ثم في رحلة (الباتو) الشهيرة بنهر السين..

كان كثيرًا مما رأيته من لوحات سبق انه رأيته في مصر في كتب أو موسوعات من الفن التشكيلي لكن الأمر يختلف عندما تقف أمام اللوحات الأصلية.

فضلاً عن الاختلاف بين الأصل الذي تراه مباشرة والصورة المطبوعة في كتاب، وهو اختلاف موجود مهما بلغت دقة المطابع. فضلاً عن ذلك تشعر بما لا يمكن أن تشعر به وأنت ترى اللوحات في كتب أو دوائر معارف. تشعر أن الفنانين أصحاب اللوحات الحقيقية التي أمامك أحياء، وهم الذين نظموا لك هذا المعرض لترى إنتاجهم الجديد وتشعر بالقداسة السحرية، وتمضي اليوم كله في رحاب موسيقى سرمدية، تدخل متحف الانطباعيين الأورسيه، في محطة السكك الحديد الشهيرة، وتمضي وقتًا رائعًا بين فنون النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، فنون النحت والتصوير بكل أدواته، وبصفة خاصة المدرسة التأثيرية، مونيه ومانيه وديجا ورينوار، وما بعد التأثيرية، فان جوخ وجوجان وماتيس وتخرج ملفوفًا بأوتار الكمان العذب الحزين اللامع، للمدرسة

التأثيرية سحر على نفسي قديم، منذ أدركت أهمية الفنون التشكيلية للكاتب، أي كاتب. لقد كان أول كتاب قرأته في الفن عن أولئك التأثيريين العظام الذين قلبوا مقاييس الفنون التشخيصية وظلوا مجهولين طويلاً، إن وقفة سريعة أمام لوحة مونيه الشهيرة «الإفطار على العشب» تجعلك تدرك حجم القلق والرعب الذي بثته هذه اللوحة في الكلاسيكيين وأنصار الفن الطبيعي.. لذلك، وللمتعة الموسيقية الرائعة التي نهلت منها في الأورسيه، صدقت ما قاله أكثر من شخص أن يومًا تقضيه في الأورسيه أفضل من يوم تقضيه في اللوفر، يحتاج اللوفر إلى وقت طويل بينما تستطيع أن تستوعب (الأورسيه) في وقت قياسي رائع.

الأماسي

لم يعجبني البيجال، ليس لأي موقف ديني أو أخلاقي، البلاد ليست بلادي والناس ليسوا أهلي، لم يدهشني أن أري صورًا ضخمة للعاهرات على جوانب مداخل الملاهي الليلية ولا محلات الجنس، وكما توقعت إلى حد كبير لا تجد في مثل هذه الأماكن إلا نماذج من الضائعين. بالضبط كما تدخل سينما تعرض أفلامًا جنسية في باريس، لن تجد فيها إلا نماذج من الشيوخ أو الضائعين، وما أبسط أن تتخيل شكل المحرومين من الإشباع الجنسي في باريس! لذلك لم أندهش وأنا أرى العاهرات على غير ما

تراحن في السينما، بل نماذج متهالكة من النساء، ولم اندهش وأنا أرى رجال الملاهي من القبضايات والقواعين الواقفين حول المناضد في أحط الملاهي الليلية العربية. هناك وحدة بين بائعي ومبتاعي الجنس في كل العالم، وهناك تشابه كبير يعم حتى الوجوه والحركات. بالليل العميق، حوالي الثالثة صباحًا، وأنا أقف مع إدوار الخراط وأصلان وأنور مغيث في البيجال تبحث عن تاكسي يعود بنا إلى الفندق رأيت باصًا كبيرًا ينزل منه رجلان أشبه برجال البوليس راحا يدفعان بعض السكارى الجالسين في الزوايا وعلى الأرصفة. سألت أنور مغيث هل يجمعون المتسولين؟ قال إنه جيش الخلاص. وهي فرق خاصة تتبع الكنيسة تجمع هؤلاء الضائعين في الليل وتذهب بهم إلى الكنائس لتقدم إليهم وجبة ساخنة ثم ينامون بقية الليل ومع طلوع النهار تطلقهم في الطرقات من جديد.

على أن الأماسي لم تكن كلها في البيجال ولا (العسان دي تي) كان هناك أكثر من لقاء مع بعض المصريين المقيمين في باريس، وكان هناك سهر بعد أن ينتصف الليل، وينتهي الكلام مع جميل عطية إبراهيم وإبراهيم أصلان، وكان هذا السهر أمام التليفزيون. نوعًا من حب الاستطلاع، كنت أعرف أني لن أستقبل شيئًا ذا قيمة لسبب بسيط جدًا هو أن ما أعرفه من كلمات فرنسية لا يكفي أبدًا لفهم مايحدث أو يقال أمامي، وكنت أعرف أن هناك دبلجة

بالفرنسية لكل شيء أجنبي يبث في التليفزيون وأنه لا فرصة في رؤية أو سماع شيء بالإنجليزية.

لكن أصبحت لي كل مساء جلسة لثلاث ساعات تقريبًا بعد الثانية عشرة أمام التليفزيون الذي أدهشني الشديدة وجدته يبث أحيانًا بعض مباريات كرة قدم، وغالبًا يبث ندوات فكرية جادة، وفي إحدى قنوات أغاني لا تنقطع أكثر من نصفها أمريكي لكن أمسكت بثلاث سهرات درامية قصيرة وممتعة، كانت الأولى بعنوان passion أي عاطفة أو انفعال أو هوى إذا شئت. أدهشني أنها حوار طويل بين شاب وفتاة لا يتغير مكانهما. شقة الفتاة الصغيرة، يتحركان باستمرار في مساحة ضيقة بها، والمسألة أنه عاشق ولهان يريد تجسيد حبه لها وهي تصده مرة بالليل ومرة بعنف، وفي النهار تعطيه قبلة صغيرة باردة لا معنى لها، ويخرج مندهشًا لكنه غير مبال. لقد اقتنع أنه لا سبيل لتجسيد حبه مع هذه الفتاة، بدا لي أن السهرة في الأصل مسرحية من فصل واحد تستمر لحوالي الساعة، الذي أدهشني هو أن يحدث أمامك في التليفزيون هذا النوع من التمثيل شبه مسرحي دون تغيير في المناظر ولا الحركة ومع ذلك لا تشعر بالملل.

في ليلة أخرى رأيت سهرة بعنوان L'annee Noire أي السنة السوداء، كانت الحلقة الثالثة، وبالطبع لم أر الحلقتين السابقتين، وكانت الحلقة مكرسة لفترة

صعود الفاشستية في إيطاليا. رأيت هذه الحلقة بعد الساعة الثانية صباحًا ولا أعرف حتى الآن لأية طائفة من المشاهدين يبث التليفزيون الفرنسي هذه الحلقات الجادة.

على أن السهرة الثالثة والأخيرة التي رأيتها في التليفزيون هي التي أدهشتني أكثر، وأنا لا أذكر عنوانها ولا أسماء الممثلين فيها، لكنها كانت عن رجل بغل حقيقي جسدًا وعقلاً يعيش في الريف، ويعمل جزارًا ومعه أمه العجوز وامرأة رائعة الجمال تكتشف أنها محظية يعاملها بكل قسوة ممكنة وهي لا تملك إلا جسدها الجميل تقدمه له كلما غضب، وكلما ضربها وأهانها. وحين تحمل منه يأبى إلا أن تجهض حملها لكنها لا تفعل وتنجب ولدًا لا يعترف بأبوته له، ولا يكف عن إيذائها، وهناك بعيدًا جدًا، في نهاية العمر، بعد أن يشيب شعر رأسه وشعر رأسها يوافق ويتزوجها في الكنيسة، وتخرج متعلقة في ذراعه غير مصدقة وتندفع في بكاء عنيف مرير وهي تقبل يديه. أي قسوة ممكنة أكثر من ذلك، ولم أصدق نفسي وأنا أرى هذه المعاملة المنحطة لامرأة رائعة الأنوثة والجمال، لم أصدق أنه يمكن أن يلحق بالنساء كل هذا الضياع، أدهشني أن توجد مثل هذه المعاملة للمرأة تجسدها الدراما الفرنسية بعد كل ما سمعناه عن المرأة الفرنسية وقرأناه ثم رأيناه أيضًا. إذ تصادف مع وجودنا نوبة حر مفاجئة خلعت فيها نساء وفتيات باريس ما طال وسمك من الثياب وارتدين ما قصر وخف وشف وانطلقن في الشوارع.

لم يعجب فندقنا بهاء طاهر الذي جاءنا في اليوم التالي لوصولنا ومعه زوجته السويسرية، رأى الحجرة ضيقة بحق! فابلناه على مقهى النجمة الذهبية المقابل للفندق في صباح اليوم التالي لوصولنا، وكان يحمل معه الحقائب استعدادًا للذهاب إلى فندق آخر قريب، لكن ليومين فقط. وماذا سيفعل بعد ذلك؟ سأبحث عن فندق آخر، وحمل وزوجته الحقيبتين وتركانا إلى الفندق، أدركت أن الوقت الذي سيمضي معنا بهاء طاهر سيكون قصيرًا. فهو سيبدد جزءًا منه في البحث عن الفنادق، ثم إنه الوحيد الذي معه زوجته، ثم إنه أيضًا مثل جميل، جاء إلى باريس أكثر من مرة. لكنه يختلف عن جميل في حبه للمشي، لكن فقط إلى الحي اللاتيني أو الشانزليزيه، إذًا سأظل أنا ومعي إبراهيم أصلان فقط نقطع شوارع باريس يصحبنا مرة إدوار الخراط الذي تجدد في الأسفار شابًا في العشرين من عمره، ومرة صديقنا المصري أنور مغيث.. لكننا في حاجة إلى أن نستمع قليلاً إلى بهاء طاهر، وكثيرًا إلى جميل عطية إبراهيم وهذا ما سأفعله الآن.

أحاديث النجمة الذهبية

صار لنا لقاء يومي كل صباح على مقهى (النجمة الذهبية) (L'etoile d'or) المواجهة لفندقنا تمامًا. في هذا اللقاء يتمدد الحديث بين الأدب والسياسة والفكاهة أيضًا، وكان طبيعيًا أن يتحدث بهاء طاهر

وجميل عطية إبراهيم على المقهى أكثر مما أتحدث أنا أو أصلان أو إدوار الخراط.

تحدث بهاء عن المحاولات التي جرت في سويسرا من أجل عدم توزيع ودخول جريدة القدس إلى البلاد من قبل دولة عربية، والمحاولات التي بذلها زملاؤه من العرب المستهزين بالأمم المتحدة لوصول القدس إليهم وكيف فشلت محاولة تلك الدولة. بالطبع كان مدهشًا لنا عدم دخول القدس إلى باريس وإغلاق المحلات الفلسطينية أثناء حرب الخليج لكن هذا من سمات فرنسا العجيبة. كأنما فرنسا تعرف أننا ننسى بسرعة ولا نتذكر منها إلا وجهها الحسن، وتحدث بهاء عن الانهيارات النفسية الرهيبة في أوروبا عمومًا، وعن انتشار المحرم والاغتصابات العائلية في محيط العائلة الواحدة، وظاهرة صعود بعض الجانحين في المساء إلى العربات الأخيرة بالمترو بحيث فإذا تصادف أن تواجد بها فرد واحد هاجموه في المترو نفسه، وتزوع المعالجين النفسيين إلى التعامل مع هذه الحالات بشكل معلن ختفاجا مثلا على محطة المترو بشاب يقدم إليك ورقة مطبوعة تتصورها منشورًا فإذا بها حكايته مع والده الذي كان قد اغتصبه في طفولته وما صار إليه الآن، هكذا بوضوح كأنما المعالج النفسي الذي رسم له هذه الخطة يعيد تأهيله مع العلاقات الاجتماعية السوية وتخليصه من أي شعور بالنقص أو الألم أو الرهبة.

ولما رأى جميل عطية دهشتي من نظافة الشوارع ونظام المرور والمشي والهدوء قال لي إن باريس لا تعتبر مدينة نظيفة بالقياس إلى جنيف، سويسرا أجزاخانة، والكلام لجميل طبعًا، لا مكان فيها لسيارة موديل العام الفائت أو تصدر صوتًا من أي نوع. لقد جاء صديق لي من ألمانيا ليعيش في سويسرا فمنعوا سيارته من الحركة داخل جنيف؛ لأنها مزعجة، ولم يكن مضى على شرائها أكثر من عامين، وحاول أن يهديها لي أشحنها إلى مصر فرفضت وشكرته ولم يجد أمامه غير مقبرة السيارات يضعها فيها. في سويسرا جماعات الحفاظ على البيئة في غاية النشاط، وأنا مثلاً - والكلام لجميل - لا يمكن أن أشتري شيئًا في كيس بلاستيك، زوجتي ترميه فورًا والعلاقة بين الشعب والحكومة في غاية الغرابة. الحكومة تقيم استفتاءات على قوانين جديدة أو مشاريع جديدة، والسويسريون دائمًا يقولون (لا) حتى في آخر استفتاء وكان حول تخفيض ساعات العمل قال السويسريون (لا) وهناك جماعات مختلفة لمناصرة العالم الثالث منها جماعة ترفض أن تشتري أية بضاعة مستوردة من العالم الثالث بسعر رخيص. تصر على شرائها بسعر مرتفع باعتبار أن الدول الأوروبية تستغل العالم الثالث، ويتجمع فارق السعر عند هذه الجماعات وترسله في شكل مساعدات لبعض الدول الفقيرة، لكن الذي يغيظك في سويسرا وأوروبا عمومًا هو الرطوبة، كل شيء نظيف حقًا لكن

يمكن أن يتعفن بسرعة، يمكن أن ترتدى القميص ثلاثة أيام ولا يتسخ لكنه يتعفن عليك من عند الياقة مثلاً.. وتشم رائحة العفن، إن الليفة التى تستحم بها لا بد بعد الحمام أن تعرضها للهواء وإلا يصيبها العفن، ومن أهم العادات التى عانيت فى تعلمها عند حضورى أول مرة إلى جنيف أن أقوم بتنشيف شعرى جيدًا بعد الاستحمام، فى بلادنا، مصر، يحلو للإنسان أن يترك شعره مبلولاً بعض الشىء بعد الاستحمام. هناك فى سويسرا، كنت أفعل ذلك وأنزل الشارع فإذا شعرى يتحول إلى سلك من الجليد يتجمد الماء حول الشعر، احتجت وقتًا حتى أقلع عن عادتى المصرية وتعلمت مثلاً ألا أحك أنفى تحت الجليد فى الجو البارد؛ لأنها ببساطة يمكن أن تخرج فى يدك فتجد نفسك بلا أنف. الأطفال هنا يتعلمون منذ الصغر بعض العادات المرتبطة بالجليد.

وهكذا راح جميل يعلمنا كثيرًا من العادات الواجبة فى البرد وتحت الجليد، وكان الجو حارًا على غير العادة فى باريس ومدهشًا!

الندوة

كانت هناك ندوة مقررة لنا نحن - الكُتّاب المصريين، سبقتها ندوة بالفرنسية شارك فيها من المستشرقين: إيف جونزاليس وريشار جاكمون وآن مينكوفسكي. فى ندوتنا امتنع صنع الله عن الكلام بلباقة تاركًا الفرصة لزملائه، وتلعثم كالعادة إبراهيم

أصلان، وأخذ ادوار كالعادة أيضًا - المسألة بجدية بالغة فتجاوز الوقت الذي خصصه بدر الدين عرودكي لكل منا، وراح إدوار يتحدث عن تجربته في البنية الروائية ولواعجه الخاصة وشطحاته وغير ذلك مما يقدر إدوار على قوله من عميق المعاني. بالطبع تحدثت انا، ولأنه كان مطلوبًا من كل منا أن يتحدث عن تجربته، فتحدثت تجربتي كما أراها أقرب إلى برهان زينون الإيلي علي عدم الحركة. وزينون الإيلي هو أحد الفلاسفة اليونانيين القدامى، أو الحكماء السبعة كما كانوا يسمون، أولئك الذين سبقوا سقراط وافلاطون وارسطو والذين قالوا بآراء مختلفة في أصل العالم.

لزينون الإيلي هذا برهان على بطلان الزمان وآخر على انعدام الحركة، يقول عن الأخير إن السهم حين تطلقه من القوس لا ينطلق إلى هدفه ولا يصل إليه أبدًا، لأنه كي يصل إلي الهدف لابد أن يقطع المسافة كلها وكي يقطع المسافة لابد أن يقطع نصف المسافة، وكي يقطع نصف المسافة لابد أن يقطع نصف النصف، وكي يقطع نصف النصف لابد أن يقطع نصف نصف النصف، وهكذا إلى ما لا نهاية لأنه لا يوجد نصف إلا وله نصف، وهكذا لن يتحرك السهم من مكانة لأنه لا نهاية لأنصاف الأجزاء، وقلت إن حالي مثل حال هذا السهم الذي تراه يتحرك امامك بحق لكنه لا يصل إلي هدفه، وهذا هو حال جيلي، جيل ثورة يوليو، وحال أمتنا العربية حتى الآن

ولا أظن أن ما كتبته من روايات يبتعد عن هذا الإحساس.

كان بهاء طاهر - كعادته أيضًا - محاضرًا من الطراز الأول تحدث عن تجربته ممزوجة بتجربة جيل الستينيات ثم تابع الكُتّاب التاليين لذلك حتى وقتنا الراهن، وعندما تحدث جميل عطية إبراهيم توقف عند نظرة الغرب إلى الشرق وكيف لا يحب الغرب أن يرى من الشرق إلا نفسه، وهذا هو ما يحدد ما يمكن ترجمته من أدب عربي وما لا يمكن ترجمته، ثم قدم وصفة للحاضرين لمن يشاء كتابة رواية تترجم بسرعة وتنازل عن حقوقه في هذه الوصفة فقال : تبدأ الرواية بفتنة طائفية بين المسلمين والأقباط، ثم يتم اختطاف فتاة تقام لها طقوس الختان، ثم يتزوج البطل البطلة ويذهبان معًا لزيارة إسرائيل تدعيمًا للسلام العالمي!!

وبهذا الحديث الساخر، وبيساطة جميل عطية إبراهيم المذهلة حاز إعجاب ورضا الجمهور فتوجهت كل الأسئلة تقريبًا إليه ونحن تركناه يجيب عليها وقلت أنا له بعد الندوة، لم نكن ندرى أن معنا محمد حسنين هيكل اليوم، لكن الملاحظة الخطيرة في الأسئلة المقدمة أنها كانت في مجملها إدانة لمصر، أو بمعنى أدق، للدولة المصرية، والمثقفين المصريين، وبالطبع من حق كل إنسان أن يهاجم أفكار من يشاء في أي وقت يشاء، لكني لاحظت في الندوة أن الهجوم كان

أحياناً لمجرد الرغبة فى الهجوم. فمن الأسئلة التى ادهشتنى جداً سؤال لأحد السائلين - فى صيغة لوم وإدانة - عن الحاج مدبولى أشهر بائع وموزع وناشر كتب في مصر، وكيف انه لا يعرض كتب الأدباء العرب. السؤال مدهش فهو يتعلق بموزع وبائع كتب ليس معنا في الندوة والسؤال غير حقيقى! لأن أهم ما يوفره هذا الناشر بالذات هو الكتب العربية قبل المصرية، ونحن من زمان نذهب إليه لنجد عنده الكتب العربية التى لا نجدها عند غيره.. ومن الأسئلة التي أدانتنا بشدة لا أعرف لماذا هو أن أحداً في مصر لم يترجم حتى الآن كتاب (الزمن الأصفر) لديفيد جروسمان الإسرائيلى الذي تنبأ بالانتفاضة الفلسطينية. كان هذا السؤال من شاب سورى وهو بالطبع لم يعرف أن مجلة الكرمل سبق وقدمت هذا الكتاب، لكنه لم يسأل نفسه لماذا يكون عدم ترجمة الكتاب فى مصر أمراً يستوجب اللوم؟ ولماذا لا يترجم في مكان آخر مثلاً[١]؟!

وهكذا بدا أن هناك قصدية فى الأسئلة حتى أن أحد الشباب من المغرب قام بإدانتنا، لأننا لا نكتب عن الريف المصري، نحن - الموجودين - بالذات وبالطبع وضح له أن هناك كتاباً فى مصر غيرنا يفعلون ذلك وبالطبع كان يعرف لكنه توصل إلى طريقة لإدانتنا والسلام.

---

(١) تُرجم هذا الكتاب فيما بعد فى مصر واحدثت ترجمته صخباً في الحياة الثقافية بين مؤيد ومعارض للترجمة عن العبرية.

أما أغرب الإدانات فكانت تعليقًا على حديث جميل عطية إبراهيم عن روايته النزول إلى البحر وكيف أنها تدور بين سكان المقابر في القاهرة. لقد وقف نفس الشاب المغربي فيما أذكر وقال إن ذلك أمر مشين جدًا وإنه سافر مرة إلى القاهرة وفوجئ بقائد الطائرة وهم فوق القاهرة، يعلن لهم أنهم يطيرون الآن فوق سكان المقابر في مصر، وطبعًا هذا اختراع من صاحب السؤال لكن هكذا كانت نبرة الإدانة عالية. أمر محير جدًا هذا النزوع إلى الإدانة. لا أحد يعرفنا فيفصل بيننا وبين أولي الأمر ولا أحد يريد أن يعترف أن الأفكار السلفية تسحبنا جميعًا من أنوفنا إلى الخسران، وأن دور مصر الآن مهما علا صوتها ليس هو المؤثر الحقيقي في هذا الخسران إنما الفاعلون هناك في جزيرة العرب.. وغير جزيرة العرب أيضًا.

فضيلة الصمت

أصابتني باريس بالصمت. اكتشفت بعد عودتي أني أنزعج لأدنى صوت يصدر قريبًا مني. بعد أيام صرت أنا منزعجًا لمن حولي. في البيت أو العمل، لأني رحت أطلب من الجميع الهدوء وعدم ارتفاع الصوت أثناء الكلام. اندهش الجميع لحالي، وأنا نفسي تساءلت ماذا جرى لي ولماذا لم أعد قادرًا على الاستماع لأية ضجة؟ اكتشفت أني لم أسمع طوال أسبوع كامل أي صوت غير صوت المصريين الذين

كانوا معى عندما نتحدث، وانتى لم اسمع احداً يتحدث فى الطريق أو الفندق، ولم أستمع لموسيقى صاخبة أو هادئة تصدر من أى مكان ولا صوت للجالسين بالمقاهى ولا صوت سارينات السيارات ووجدت أن ذلك أمر غير مقبول. طلبت من زوجتى رفع صوت الراديو ومن أولادى الجرى فى البيت.

وإحداث الضجة ومن الموظفين فى العمل التحدث بصوت عال وفى وقت واحد. لابد أن أعود لعالمى الأولى وبسرعة. وهاأنا عدت إليها، رجعت قادراً على احتمال الضجيج.

الرحلة الثالثة
أدباء مصريون في فرنسا

لم ينقطع الاتصال بين مصر وفرنسا منذ تلك اللحظة التاريخية القصيرة أثناء الحملة الفرنسية، بل بدا في كل وقت أنه اتصال أبدي برغم ما يبدو فيه أحيانًا من أوقات ظلام، كانت نهضة محمد علي بالبلاد في جانبها الأكبر فرنسية، سواء بالبعثات التي أرسلها أو بالسان سيمونيين الذين وفدوا على مصر بأحلامهم في البناء والعمران، أو بالجيش العظيم الذي وضع أصوله ورعاه سليمان باشا الفرنساوي! درس التاريخ يقول - بعد وفاة محمد علي وإبراهيم - إن فرديناند ديلسبس قد خدع الخديو سعيد وحصل منه على امتيازات كبيرة لحفر قناة السويس، وإن القناة كانت وبالاً على مصر، ونفس التاريخ يقول إن القناة كانت ولا تزال نعمة اقتصادية ومحورًا من محاور الوطنية المصرية.

إن أكبر النقط المظلمة في تاريخ العلاقة ب
فرنسا هي العدوان الثلاثي (١٩٥٦م) وتمويلها
للمفاعل الذري الإسرائيلي في وقت مبكر، لكن ذلك
العدوان الذي لم يمض شهورًا سرعان ما يختفي أمام
ذكرى وأعمال رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك
ومصطفى كامل ومحمد عبده والأفغاني ورواد التنوير
بعد ثورة ١٩١٩، طه حسين ومحمد حسين هيكل
والسنهوري باشا وتوفيق الحكيم إلى يوسف شاهين
في زماننا. أما إسرائيل فلم تعد عدوًا!!.

باختصار كان احتلال مصر إنجليزيًا منذ الربع
الأخير للقرن الماضي حتى نهاية النصف الأول من هذا
القرن، وطوال هذه الفترة بالتحديد كان الأثر
الحضاري، المادي والمعنوي، في مصر فرنسيًا خالصًا.

إن المثقفين المصريين منذ رفاعة الطهطاوي لم
ينقلوا الروح الفرنسية في الثقافة فقط، بل منهم من
عمل على نقلها إلى الحضارة المادية أيضًا إلى البناء
مثل علي باشا مبارك، فمعظم ميادين القاهرة
الحديثة قد صممت على شكل ميادين باريسية، كما
أن شارعي محمد علي وكلوت بك هما نموذجا
لشارع ريفولي في باريس - الريفولي لا يزال قويًا
جميلاً بديعًا بالليل والنهار بينما تحول كلوت بك إلى
خرائب تامة، ومحمد علي في طريقه للانهيار - يكفي
في النهاية أن أقول لك إن الذي بنى قناطر محمد
علي هم المهندسون السان سيموتيون الفرنسيون

وفي عهد عبد الناصر بني مبنى الإذاعة والتليفزيون مهندسون فرنسيون أيضًا في منطقة ماسبيرو، ذلك الاسم الفرنسي الذي لعله أكبر الأسماء الأجنبية في عالم الآثار المصرية.

فرنسا إذًا تحتل مساحة كبيرة في بنية العقل المصري الحديث. من منا لا يطرب قلبه حين يسمع اسم باريس التي أسماها طه حسين ببلد الجن والملائكة؟ الرحلة إلى فرنسا إذًا ليست شيئًا عاديًا، والذين سيقومون بالرحلة هذه المرة جماعة من الأدباء يزورونها لأول مرة أو لثاني مرة على أحسن تقدير وعددهم أكبر من المرة السابقة.

الجميلات الأجنبيات

صفة أطلقها أحد شعراء القرن الماضي على الأعمال الأجنبية التي يتابعها القارئ الفرنسي، المقصود بها إذًا أعمال الكُتّاب وليس الكُتّاب أنفسهم، وهي صفة مثيرة قمينة بلفت الانتباه وإثارة الذهن، وفيها معنى الفتنة والغواية والخيانة أيضًا. فيها كل مايغري على المعرفة، هذه الصفة أصبحت عنوانًا على برنامج ثقافي كبير تنفذه وزارة الثقافة الفرنسية (إدارة الكتاب والإدارة الفرانكو فونية) كل عام ومنذ سنوات، بالتحديد منذ عام ١٩٨٧ حيث كانت البرازيل الدولة الأولى التي ابتدأ بها البرنامج، وتبعتها ألمانيا الديمقراطية - ذلك الوقت - فالدانمارك والأرجنتين وإسبانيا والصين والبرتغال وفنلندا والمجر وأيرلندا

واليونان وأستراليا وبولونيا والمكسيك والنمسا وشيلي وإفريقيا الجنوبية وتركيا وإسرائيل/... إلخ.

وهكذا كما ترى غالبية هذه الدول ليست معروفة للقارئ الفرنسي، كما أن البرنامج قد يتكرر أكثر من مرة في العام الواحد لأكثر من دولة، ومصر هي الدولة الثالثة والعشرون في البرنامج الذي بدأ منذ سبع سنوات. خصص البرنامج هذا العام - ١٩٩٤ - لمصر إذًا، وتم الترتيب له منذ عامين، هكذا عرفنا ومنذ منتصف عام ١٩٩٤ وأخبار البرنامج تخرج من (المركز العلمي الفرنسي) قسم الترجمة، من القاهرة إلى الصحف. وفي هذا المركز يشرف المستشرق الكبير ريشار جاكمون على ترجمة عيون الأدب والفكر الفرنسي إلى اللغة العربية، ويختار ويدعم أيضًا ترجمة الأعمال المصرية إلى الفرنسية وحين يتم التأريخ الدقيق للعلاقات الثقافية المصرية الفرنسية سيقال إنه كما افتتح هذا القرن - العشرون - بأعمال الأثريين الفرنسيين الكبار، فإنه سينتهي بعمل ثقافي كبير للمستشرق ريشار جاكمون ألا وهو دعم ترجمة مائة كتاب فرنسي من أحدث الإصدارات في شتى المجالات إلى اللغة العربية. تجاوزت الترجمة الستين كتابًا حتى الآن وخلال خمس سنوات، إلى جانب اختياره لبعض النصوص المصرية والعربية لترجمتها إلى الفرنسية، فهو نفسه قد ترجم لمجيد طوبيا وقبيل نعوم وصنع الله إبراهيم، وهو الذي اختار روايتي (البلدة الأخرى) للترجمة وخصص لها منحة

للمستشرقة الجديدة كاترين تسبيه نومامن، وفعل نفس الشيء مع رواية بهاء طاهر (خالتي صفية والدير) وأثار اختيار الأسماء بعض اللغط بين الكُتَّاب، وهذا طبيعي جدًا في بلد مثل مصر يزخر بالمبدعين. لقد استقرت الأسماء على اثني عشر كاتبًا هم : إدوار الخراط - إبراهيم عبدالمجيد - إبراهيم أصلان - بهاء طاهر - لطيفة الزيات - سلوى بكر - نبيل نعوم - محمد البساطي - جمال الغيطاني - أحمد عبدالمعطي حجازي - محمد عفيفي مطر - عبدالمنعم رمضان، وكان نصيب كتاب القصة والرواية هو الأعظم (تسعة كتاب أمام ثلاثة شعراء) مما يؤكد على ثقل الإبداع القصصي - هذه حقيقة لا تشين الشعر والشعراء - ولا شك أنه لا يزال في مصر أسماء من كتاب القصة، فضلاً عن الشعراء، لها أهميتها، ولها إنجازها الفائق. إذن الأدباء الذين تم اختيارهم ليس المقصود بهم الأفضل وإنما هم ممثلون لحالة الأدب العربي في مصر لا أكثر.

قبل السفر.. يوم الوصول

في أكتوبر ١٩٩٤ وصلت القاهرة المستشرقة (آن متكوفسكي) مستشارة وزارة الثقافة الفرنسية، وهي المعروفة جدًا في الأوساط العربية الأدبية ومعها ميشيل مريام أحد المشرفين على البرنامج من قبل وزارة الثقافة الفرنسية، والتقيا بالكُتَّاب المختارين للسفر. في لقائي معهما اطلعاني على تفاصيل

البرنامج، وفعلا ذلك بالطبع مع الجميع. عرفنا أن سيتم طبع كتيب أنيق للتعريف بنا يكتب فيه عدد م خيرة النقاد المصريين والفرنسيين، كما أننا سننتقل من باريس إلى أكثر من مدينة فرنسية.

بعد هذه اللقاءات وصل المخرج التونسي الذي سيقوم على إخراج الفيلم التسجيلي، أمضى في مصر حوالي أسبوعين انتقل فيهما مع الكُتّاب إلى قراهم ومدنهم خارج القاهرة، اصطحبته أنا إلى الإسكندرية حيث ولدت وعشت طفولتي وصباي ومطلع شبابي والتي عنها مازلت أكتب، لم أكتب عن القاهرة بعد غير قصة قصيرة يتيمة برغم أنه قد مضى علي وجودي بالقاهرة عشرون سنة، في الإسكندرية تعرضنا لمواقف تستحق التسجيل أجملها كلها في دهشة الجماهير من أمرنا، وغضبها أكثر من مرة حيث كنا نقوم بالتصوير في أمكنة مفتوحة وشعبية كانت محطة ال (سي. إن. إن) الأمريكية قبل ذلك بأسابيع قد أذاعت حفل ختان الفتاة المصرية، وكان ضمن طاقم التصوير فتى وفتاة فرنسيان، وهكذا تصور الجميع أننا جواسيس، فساقونا إلى أقسام البوليس أكثر من مرة، وفي كل مرة كان البوليس هو الذي يساعدنا على الانتهاء من التصوير!! انتهى المخرج من تصوير مايريد، وعاد إلى باريس حيث يعمل ويعيش، وقبل السفر بأسبوعين سافر المستشرق ريشار جاكمون أيضاً إلى باريس ليكون وسط الاستعدادات وفي استقبالنا بعد ذلك، كانت

الرحلة من القاهرة إلى أى مكان آخر، بالنسبة لي على الأقل، ولجيلي الذي يحب هذا الوطن إلى درجة الرغبة في الفرار! حقيقة. وطن يحتضر بين يديك يحبه وتعجز عن شفائه. حقيقة وطن تحبه ولا يبادلك الحب إلا بعدم الاكتراث، وطن تفر منه وتأخذه معك، تحمله على ظهرك أينما هربت، أجل ما معنى أن تكون مشهورًا في أي مكان في العالم بينما أنت غريب في الوطن؟ ثم إن الشهرة في أي مكان في العالم ليست سهلة. العالم الآن قد تم تقسيمه إلى دول سائدة ودول بائدة، وللدول البائدة خط أحمر لا تتجاوزه، تريد أن تدخل إلى العالم الواسع، لابد لك أن تعمل وفق قوانين العالم الواسع. وأول تلك القوانين أن تتخلى عن الوطن! فهل يمكن؟ على أن الرحلة كانت سهلة؛ لأننا ذاهبون إلى باريس. بعد الاستقبال في المطار، وفي الفندق، تسلمنا أوراقنا التي كان أبرزها الكتيب عننا نحن الكتاب.

أي زحام هذا الذي قابلناه في الأوبرا. كانت المصادفة قد جعلت اليونسكو تقيم في نفس الليلة أمسية شعرية لمحمود درويش بمناسبة صدور ديوانه الجديد ولفوزه بجائزة اليونسكو للإبداع. انقسمت باريس بيننا وبين درويش، ذهب معظم الأخوة العرب إلى درويش، وجاءنا العدد الأكبر من الفرنسيين، اضطرت إدارة الأوبرا إلى تغيير القاعة التي خصصت من قبل لافتتاح البرنامج، كانت قاعة صغيرة يشغلها ثلاثمائة مقعد، القاعة الجديدة تسع خمسمائة مقعد.

وظل أكثر من مائتي شخص بالأبواب لم يستطيعوا الدخول فانصرفوا، وأظلمت القاعة وبدأ تشغيل الفيلم التسجيلي الذي كان المخرج التونسي (مصطفى حسناوي) قد جاء لمصر من قبل لتصويره. استغرق الفيلم نصف ساعة، وبرغم قصر الفيلم فلقد بدا واضحًا اهتمام المخرج بتأكيد الفروق الأدبية والشخصية بيننا، وهذا وحده يكفي ليحسب للفيلم.

كان ممن قابلناهم ليلة الافتتاح المفكر الكبير سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية بجريدة الأهرام، وجدت ابتسامة كبيرة على وجهه وسعادة حقيقية، انتقلت هذه السعادة إلينا.

مشهد الجمهور الغفير يخيف الكُتّاب أمثالي نحن كُتّاب القصة والرواية - مساكين مع الجمهور. لقد تعودنا على الحكاية، والحكاية غالبًا تكون في ركن صغير لعدد قليل من الأولاد أو الأحفاد أو الأصدقاء. ليس لكتاب القصة طاقة على الجمهور الواسع، ذلك أمر ينجح فيه الشعراء. معظم الأسئلة أو كلها كانت سياسية في ذلك اليوم. تبتعد وتقترب من الإرهاب الفكري والديني وغير ذلك من الظواهر السلبية في مجتمعاتنا العربية، انبرى للإجابة عن الأسئلة حجازي ومطر ولطيفة الزيات والغيطاني وبهاء طاهر، ولما جاء سؤال يتيم عن السينما أخذته أنا، لكني بدأت أفكر بالأسئلة السابقة وأدرك الفكرة العامة السائدة عن العرب في أوروبا اليوم. وهذا أمر يستحق الوقوف عنده بعض الوقت.

(تسليمة نسرين) الطبيبة البنجلادشية الهاربة إلى فرنسا هي بطلة الشرق الإسلامي بلا منازع الآن، فهي المرأة التي كتبت عن ظلم المسلمين لغير المسلمين في بلادها وعن ظلم المسلمين للمرأة المسلمة فخرجت المظاهرات تطالب برأسها بعد صدور فتوى من أحد الشيوخ باستحلال إهراق دمها. السؤال في كل الندوات وبأكثر من صيغة وفي كل الأحوال تلمس في السؤال تطابقاً في الرؤية بين الإسلام والإرهاب.

وهكذا ببساطة تستطيع أن تعرف وضع العرب في أوروبا، خاصة في وسائل الإعلام. كل الذين أجابوا عن السؤال منا أشاروا إلى مشاكل الواقع الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى إفراز هذه الحركات المتطرفة، وكيف أن الإسلام هو الجواد الباقي في الساحة السياسية فركبته هذه الحركات التي لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي، لكن السؤال دائماً يعود بصيغة أخرى حتى اضطررت أكثر من مرة إلى أن أتحدث عن دور الغرب في تغذية هذه الحركات المتطرفة، وقلت بالحرف الواحد إن إسرائيل مثلاً رفضت كل مشروعات السلام العادلة فكان طبيعياً جداً أن تظهر (حماس) كرد متطرف على العنصرية الإسرائيلية، وإن الولايات المتحدة الأمريكية تأوي معظم قيادات التطرف من الجزائر، كما تأوي مفتي الجهاد عمر

عبدالرحمن، وفي لقاء مع وزير الثقافة الفرنسي جاك توبو وجه إليه بهاء طاهر سؤالاً مباشرًا عن الطريقة التي تعامل بها تسليمة نسرين كبطلة ضد التخلف الإسلامي وهل هي الطريقة الصحيحة في مثل هذه الأمور، وهل يؤدي ذلك إلى تمضيد مفكري الاستنارة في بلاد الشرق أم يزعزع من مواقفهم؟ الواضح أنه يضر بهم! لأن موضوع تسليمة نسرين لم يكن يستحق كل هذا العداء الواضح للإسلام أو المسلمين، كان رد الوزير إن هذا الكلام فيه جانب كبير من الصحة، لكن هكذا تطور الأمر من إنقاذ كاتبة إلى ماتراه، وإن كل مثقف حقيقي يعرف سماحة الإسلام. لقد كان لقاء الوزير كله تقريبًا مكرسًا للحديث عن الفرانكوفونية وكيف أنها في أحد جوانبها الكبيرة مواجهة للغزو الأمريكي الثقافي - بالمناسبة الأفلام الأمريكية تملأ السينمات الفرنسية والمسلسلات الأمريكية تملأ التليفزيون الفرنسي - ونحن بدورنا سألناه تدعيم الجوانب الثقافية في مصر خاصة السينما والفنون، حيث يقوم ريشار جاكمون بتدعيم الوجود الفكري والأدبي بمشروعه الكبير لترجمة المائة كتاب من عيون الفكر والأدب الفرنسي، والحقيقة أننا طلبنا تدعيم الوجود الفني الفرنسي ليس من باب مواجهة الغزو الأمريكي، ولا من باب فرانكفوني، ولكن لما للثقافة الفنية الفرنسية من تقاليد وجرأة على التجديد وأثر دائم على مثقفينا وفنانينا. على أن السؤال عن التطرف والإرهاب كان - كما قلت - يعود

بصور أخرى فى قدوة عن حرية التعبير. أما أن الدول العربية تصادر حرية التعبير فهذا أمر لا مناقشة فيه، فأخبار الكتب المصادرة والأفلام الممنوعة تصل هناك قبل أي شيء آخر، وموقف مجلس الشعب المصري من بعض دواوين الشعر معروف هناك، والقضية التي رفعها أحد المحامين للتفريق بين الدكتور نصر حامد أبوزيد وزوجته، والقضية الجديدة التي رفعها أحد المحامين في مصر ضد فيلم المهاجر ليوسف شاهين، هذه وتلك وغيرها أمور معروفة في الأوساط الثقافية الفرنسية، القريبة من هموم الشرق، هناك تسليم بتدخل جهاز الدولة في كل البلاد العربية في حرية الكاتب، رغم أننا أوضحنا بعض الحقائق المتعلقة بمصادرة الكتب في مصر، وكيف أن جميعها حتى الآن، ومنذ عام ١٩٨٠ لم يصدر بها أي قرار إداري أو حكم محكمة، إنما هي اجتهادات لبعض المسئولين من الأزهر الشريف، يلبيها بعض المسئولين عن النشر دون أي قرار مكتوب. عند هذه النقطة ينتقل السؤال إلى مدى ما تثيره الحركات الإسلامية المتطرفة من ضغوط على المثقف لتقييد حريته في التعبير، وهو سؤال له وجاهته خاصة أن عددًا من المثقفين المصريين ترتعش الأقلام في أيديهم الآن بعد مسلسل الاغتيالات في الجزائر، وبعد العدوان الأثيم على نجيب محفوظ. لقد أوضحنا الموقف الشجاع لغالبية المثقفين المصريين أمام الإرهاب، لكن المثير في

الأسئلة كلها أنها كانت توجه إلينا وفيها روح الإدانة لنا كأننا المسئولون عما آلت إليه الحال. ربما هذا الإحساس الذي تحمله الأسئلة هو ما حمل بهاء طاهر في إحدى الندوات إلى أن يتحدث عن حقوق الإنسان الضائعة ليس في البلاد العربية وحدها ولكن في الغرب أيضًا. إن الجنود الصرب مثلاً أضاعوا كل مظاهر حقوق الإنسان لشعب البوسنة، وفي الندوة نفسها التي حملت عنوان حرية التعبير، والتي حضرها جيل كيبيل، وهو من جيل المستعربين الجدد. وله كتاب عن اغتيال السادات اسمه (النبي والفرعون) كما حضرها جاك لاكوتير مندوب اللوموند في مصر في الخمسينيات والستينيات وصاحب كتاب عنه أيضًا في ذلك الوقت. في تلك الندوة قلت إنه بالإضافة إلى دور أمريكا المؤسف في تغذية الحركات الإسلامية. فإنها تساهم بشكل أو بآخر في تقييد حرية التعبير للشعب العربي، إن لعبة التوازنات السياسية، هي التي تجعلها تتحالف مع أي حاكم وهي تعرف مدى إهداره حرية وحقوق شعبه إن العالم تحكمه المصالح وليس هناك مكان واحد به حقوق المواطنة كاملة. إنما هي تفاوت في نسب الحقوق. كم نظامًا ديمقراطيًا تسانده الولايات المتحدة الأمريكية؟

لم نكن نريد في إجاباتنا أن نزايد على الجمهور السائل، ولا أن نخفي الحقائق، أو نجمل صورة مجتمعاتنا، بقدر ما كنّا نريد أن نوضح أن بعض

النظم الغربية ليست بريئة مائة في المائة مما يحدث في الشرق الاستبدادي!

لقد حققت مبيعات تسليمة نسرين حوالي نصف مليون نسخة في فرنسا وحدها، والمدهش أنها صارت سجينة للإعلام الغربي أكثر مما هي سجينة للقوى الغبية بقتلها، ولقد صرحت أخيرًا أنها تريد أن تغير بعض آيات القرآن الكريم، وهكذا انزلقت السيدة تسليمة نسرين تحت ضغط الإعلام، فبعد أن كانت كاتبة تنادي بالمساواة بين الناس في كل الأديان وفي الدين الواحد صارت تناطح الدين نفسه، وهذه هي المأساة وهكذا يستمر التطرف موجودًا، بنفس الدرجة التي يساعد بها الفساد السياسي والاجتماعي في البلاد الإسلامية على وجوده، وهكذا بدا لي أنه لا نهاية لهذه الحلقة الجهنمية، الفساد السياسي في الأرض الإسلامية ينتج التطرف.

ترجمة الأدب العربي

هناك إجماع بين المتخصصين على أن الترجمات الفرنسية للآداب العربية هي أفضل وأهم الترجمات الأوروبية، أولاً لدقتها، ثانيًا لوجود قارئ لها أكبر بكثير مما هو في اللغات الأخرى، ولا شك أن نصيب الأدب المصري من الترجمة الفرنسية لا بأس به حتى الآن ويزداد يومًا بعد يوم سواء من حيث عدد الكتاب أو من حيث عدد النسخ المطبوعة أو المبيعة حيث تحقق بعض الكتب أكثر من طبعة للكتاب الواحد، وهذا أمر جديد ومشجع.

لا شك أن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أثر كبيرًا في تسليط الضوء أكثر على الآداب العربية وليس ترجمـسيـة من أي نوع اتقـول بأن في الرواية العربية الآن كشوفات وإنجازات لا تقل، إن لم تتفوق أحيانًا عن الرواية الأوروبية والعالمية عمومًا، وفي الشعر العربي لدينا أصوات ذات حس إنساني راق يمكن أن يقرأها القارئ الأوروبي بنفس المتعة التي يقرأ بها شعراءه. المسألة أن الترجمة من العربية عملية شاقة ومكلفة، ودور النشر في أوروبا دور خاصة يهمها في النهاية أن تربح، دور النشر الأوروبية ليست ملك الدولة، ليست كما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي زمان، والحمد لله أنها ليست كذلك وإلا لاختارت كما كان الاتحاد السوفيتي يختار!! ففي عام ١٩٩٤ هذا أصدرت دار نشر فرنسية هي (أكت سود) كتبًا لكل من صنع الله إبراهيم، محمود درويش، نبيل نعوم، وإبراهيم عبدالمجيد، كما نشرت دار (سوي) لجمال الغيطاني كتابًا جديدًا، لكن هناك من يضع بعض التحفظات على مسألة الترجمة. ويقول إن دور النشر، أو المستشرقين عمومًا، يختارون ما يرونه ملائمًا للفكرة السائدة في الغرب عن الشرق المستبد المستحل للنساء... إلخ والسؤال هو إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحاول نحن دعم عملية الترجمة بالأموال العربية وهي كثيرة؟ لماذا لا ننظر للأمر من زاوية أخرى أكثر حقيقية أيضًا وهي أن المستعرب الذي يقوم بالترجمة إنما يقوم بعمل صعب حين

يعرف سلفاً أن العائد المادي من المبيعات لن يكون مجزيًا فهو إذًا يخاطر بوقته وقوته أيضاً. هذا المستعرب الذي يضحي بالوقت والجهد يحتاج إلى دعم المنظمات الثقافية (اليونسكو العربية مثلاً) أن الترجمة إلى الفرنسية هي أوسع وأدق الترجمات للأدب العربي حتى الآن، لأن الدولة الفرنسية تدعم عادة أو في الأغلب هذه الترجمات دعمًا ماليًا ثم إنه مع افتراض صحة وجهة النظر القائلة بأن الاختيار يتم وفقًا لمنظور الغرب إلى الشرق ألا يؤدي ذلك إلى ترجمات أخرى فيما بعد تخرج عن هذا المنظور؟ أضف إلى ذلك أن قبيلة الكتاب لم تكتب أبدًا للترجمة حتى الآن. لم تكن سلوى بكر أو حنان الشيخ تعرف وهي تكتب أنها ستترجم إلى الإنجليزية أو الألمانية وكذلك محمود درويش والقيطاني وصنع الله إبراهيم والمخزنجي وغيرهم، إنني مضطر إلى هذا الكلام لأن اللغط فيه كثير. وكثيرًا ما يخلط البعض الأوراق فيبدو الكاتب كأنما كتب أعماله من أجل أن تترجم إلى لغات أخرى، إن كتابة من هذا النوع لا تترجم المشكلة أننا نحن العرب وحكوماتنا الرشيدة لا نلتفت إلى أهمية الترجمة، إن تأمين أجر المترجم فقط من قبل (اليونسكو العربية) سيشجع دور النشر الأوروبية على الدخول الواسع إلى أدبنا العربي، لكن حكوماتنا الرشيدة تتصور أن قراءة أوروبا لآدابنا ستعطيها فكرة سيئة عنا. كان هناك فكرة طيبة. لا يفهم أحد أن قراءة رواية أو ديوان شعر يتيح الفرصة للآخر أن

يعرف (العربي) كحالة إنسانية حقيقية أكثر مما يعرفه كحالة إرهابية أو سياحية أو كحالة سياسية كما هو حادث الآن.

خارج باريس

في المدن الفرنسية كانت هناك ندوات مختلفة لنا في بوردو ومونبلييه كانت هناك أكثر من ندوة لأصلان والغيطاني، قال أصلان عنها إنها كانت بعيدة عن الأسئلة السياسية داخلة أكثر في الأسئلة الأدبية، وحدثني جمال الغيطاني عن أهم الأسئلة التي وجهت إليه، ومنها سؤال عن الزمن كما يفهم من أعماله التي تتأسس على التراث، وحديثه عن رؤيته للزمن في حالة صيرورة دائمة ينتقل في نفس اللحظة إلى الماضي، إلى التاريخ.

وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى - بعد سؤال عن العامية والفصحى - وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى في تجلياتها المختلفة بين المشرق العربي والمغرب العربي، بل وبين مصر وأقطار العرب الأخرى، المغربية على الخصوص والسؤال وجيه يغري بالبحث، وقد يوقع في الضلال، ومن إجابة الغيطاني أشار إلى أن هناك نصًا كبيرًا مهيمناً هو القرآن الكريم، هذا النص يتجاوز القسمة القطرية أو الجغرافية من ناحية ومن ناحية أخرى فإن محاولة إعادة ما جرى للغة اللاتينية على اللغة العربية الفصحى لن تنجح بسبب النص الأكبر الموجود من

جهة ومن ناحية أخرى فإن ما جرى للغة اللاتينية لم يكن جيداً فى كل الأحوال، وبالتأكيد كان حال الآداب والثقافة الأوروبية سيكون أفضل لو ظلت اللغة اللاتينية لغة أغلب الشعوب الأوروبية. على الأقل كان ذلك سيوفر المجهود الكبير فى الترجمة الذي يحدث الآن من لغة إلى أخرى. على أي حال هذا السؤال المهم يتردد على استحياء الآن لكنه يمكن أن يتردد فيما بعد بقوة بسبب التغيرات الشديدة التي تشهدها اللغة العربية في المغرب الأقصى بالذات أو المؤثرات الأجنبية التي تتسلل إليها. وذلك يدعو العلماء والمترجمين فى الوطن العربى إلى محاولة الوصول إلى نص واحد ومصطلح واحد. وأعتقد أن هذه هى القضية الغائبة عن المجامع اللغوية العربية منذ نشأتها.

إلى (آكس أن بروفانس) و (مارسيليا) سافرت سلوى بكر وبهاء طاهر ولحقت بهما فى ليون. وسلوى بكر على طول الرحلة متسمة بالحيوية والصراحة، حيوية فى استقبال أسئلة الجمهور وصراحة فى الإجابة إلى حد مثير. وهي الآن في أوروبا كاتبة معروفة ترجمت لها أعمال كثيرة إلى الإنجليزية والألمانية، وفي الطريق ترجمة فرنسية لروايتها (العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء).

قبل ليون كنت ذهبت مع محمد عفيفى مطر إلى بلدة صغيرة تسمى (بلوا) إلى الغرب من باريس على

مبعدة حوالي ثلاثمائة كيلو متر حيث أقيمت لنا ندوة بإحدى المكتبات. قبل الندوة زرنا (قصر بلوا) وهو أربعة قصور ملكية بنيت في أربعة عصور متعاقبة منذ العصر الإقطاعي (القرن الثالث عشر) حتى بداية العصور الحديثة (القرن السابع عشر) نلمس فيها أربعة طرز معمارية : الفن القوطي، ثم المزيج من الفن القوطي وبدايات عصر النهضة، ثم روح عصر النهضة ثم المرحلة الكلاسيكية التي شملت القرن السابع عشر. هذا القصر هو أكبر قصور المدينة الصغيرة التي تمتلئ بقصور الأمراء والملوك قبل الثورة الفرنسية. لقد احتل جنود الثورة الفرنسية جوانب هذا القصر وجعلوا من جناح الملكة كاترين دي ميديتش مكاناً للنوم وللخيل. ولما لاحظت أنا جدران الجناح الخشبية لا تزال سليمة النقش حدثتني السيدة التي تشرح لنا معالم القصر بأن أحد الأمراء أدرك خطر الثورة على هذا المكان فقام بدهان هذه الجدران الخشبية ذات النقوش الدقيقة بالجص، وفي القرن التاسع عشر وفي زيارة لبلزاك الكاتب الشهير للقصر اكتشف هذه الحقيقة وهو يمر على الحوائط بالمصادفة، وقاموا بإزالة الجص لتظهر هذه النقوش البديعة.

في (بلوا) الصغيرة هذه التي تحمل اسمها من كلمة لاتينية تعني (الذئب) تحدث عفيفي مطر باستفاضة عن تقصير الغرب في معرفة وفهم الشرق وعن النظرة المتعالية للغربي إلى الشرق وضرورة أن

تغيير، وتحدثت عن الإسكندرية وعن روايتي البلدة الأخرى. دائمًا كان هناك حديث عن روايتي؛ لأن الندوات كانت في المكتبات حيث تباع الرواية وأقوم بالتوقيع على النسخ المبيعة للجمهور. كانت هذه أول مرة في حياتي أفعل فيها ذلك كنت كثيرًا ما أرتبك لأني أوقع لناس لم ألتقهم من قبل وعليّ في كل الأحوال كتابة كلمة رقيقة وهي في أوروبا مسألة طبيعية لترويج الكتاب. على أي حال في المرة الثالثة صار الأمر سهلاً وأذكر أني وقعت على حوالي عشرين نسخة في مكتبة كرونيك في ضاحية كريتاي خارج باريس وحدها.

في ليون لم يكن الأمر على ما يرام برغم أن ليون أقدم علاقة بالشرق من باريس وغيرها!

بدأ مستقبلونا ينفذون البرنامج على مضض. كانت سلوى بكر وبهاء طاهر قد سبقاني إليها، وجدت سلوى مصابة بعد أن انزلقت على ظهرها أمام الفندق بطريقة جعلتها عاجزة عن حمل متاعها بالإضافة إلى الفندق المخيف الذي كان في الأصل ديرًا. كان تعليق (لوك باربوليسكو) الذي صحبني ليتحدث عني ويترجم حديثي أن هذه مدينة دخلناها بالليل وتركناها في الصباح الباكر فهذه رحلة غامضة وأمر صعب على النفس، وكان محقًا. لكن خفف عنا الجمهور الذي احتشد لنا والأسئلة التي وجهت لنا ولي شخصيًا عن اللغة والأسلوب في روايتي. شخصان فقط لم

يغادرا باريس هما أحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد البساطي، كانت لهما ندوة في بروكسيل في بلجيكا مع الأدباء البلجيكيين الذين يكتبون بالفرنسية ولكن منظمي المهرجان نسوا الحصول على فيزا لدخول بلجيكا لأي منهما وكان تعليق البساطي: الحمد لله أنها ألغيت لأن معلوماتي عن الأدب البلجيكي المكتوب بالفرنسية قليلة. وبهذا الكلام عن البساطي ننتقل لآخر محطاتنا، نلقي نظرة على باريس وسلوكنا فيها.

موجز عن التجوال

لقد سبق لي زيارة باريس منذ عامين بدعوة كريمة من معهد العالم العربي لندوة عن الرواية المصرية، لكن لا يعني هذا أني أعرف باريس، وأني لن أندهش في زيارتي الثانية دهشتي الأولى، لكن حالي بالتأكيد يختلف عن حال البساطي ومطر وعبدالمنعم رمضان الذين يزورونها لأول مرة. جمال الغيطاني وأحمد عبدالمعطي حجازي هما أكثرنا معرفة بباريس (أقام فيها حجازي خمسة عشر عامًا وزارها الغيطاني خمس عشرة مرة!) كان طبيعيًا أن نقسم صباح وصولنا ثلاثة أقسام أنا وأصلان والبساطي مع الغيطاني، ومطر ورمضان مع حجازي ود. لطيفة الزيات مع د. سامية محرز، أما سلوى بكر فذهبت في مهب الريح، لسلوى صداقات عديدة فهي لم تتوقف عن الحركة مع ضيوفها أو استقبالهم بدءًا من مترجمات أوروبيات إلى زوجات الملحقين العسكريين والسياسيين والثقافيين... إلخ.

كانت كل يوم تحمل فى يدها دعوة لنا إلى غداء أو عشاء فى بيت سفير أو ملحق من مصر أو البلاد العربية. وكلها لم نلبها لازدحام البرنامج باستثناء سهرة قصيرة فى بيت الملحق العسكرى المصرى فى جولتنا الأولى. أسلمنا، نحن -- القصاصين - قيادنا إلى جمال الغيطاني الذى قطع بنا جولة كبيرة من أمون برناس حيث نسكن إلى سان جيرمان وأزقته المليئة بالجاليرهات الفنية إلى سان ميشيل حيث الكتب والمكتبات إلى المون برناس مرة أخرى مخترقين حدائق اللوكسمبرج الجميلة. خرجنا فى العاشرة صباحًا من الفندق وعدنا فى الرابعة عصرًا بلا تعب مع أننا لم نركب أية مواصلة. فى باريس يتحفز جسمك للمشي والحركة، يرفض النوم يرفض التعب هواء باريس يفتح مسام الجسم، والجسم نفسه يصبح طيعًا للعقل والروح وأمام كنيسة سان جيرمان لابد أن تدخل إلى مقهى (دايجون) هذه سياحة باريسية ففي هذا المقهى كان يجلس سارتر وسيمون دى بوفوار وهمنجواى وغيرهم، وقد وضع صاحب المقهى أسماءهم على أماكنهم. هذه عادة باريسية ذكية وجميلة فى الفندق الذى نزلنا فيه أيضًا، فندق (راسباى) وضع صاحب الفندق أسماء أكثر الفنانين والأدباء الذين نزلوا بالغرف يومًا ما وإذا كان الفنان تشكيليًا تجد فى الغرفة لوحة له غالبًا أصلية يكون قد أهداها إلى الفندق. على مقاعد الكتاب المشاهير نفسها كان يجلس كتاب آخرون. كان أحدهم لا يكف

عن الحركة وهو جالس يكتب بسرعة فائقة بحيث يرعبك إذا فكرت في الجلوس جواره أو النظر إليه ابتسمت حين رأيته لأنه ذكرني بصورة الفنان كما كانت تقدمه أفلامنا القديمة.

برغم ازدحام البرنامج وجدنا يومًا لزيارة اللوفر، لم أزره في زيارتي السابقة لباريس، ذهبت أنا والبساطي وعفيفي مطر. يوم واحد لا يكفي لزيارة متحف اللوفر لذلك قررنا أن نركز على جناح أو جناحين، وفي وقت واحد قررت أنا والبساطي أن نركز على فنون عصر النهضة لكن عفيفي أضاف ضرورة زيارة الجناح الإسلامي خفنا أن نقول إنه في مصر يزخر المتحف الإسلامي بما هو أكثر من اللوفر. فعفيفي كان سيتهمنا ضاحكًا بالعمالة للغرب مع أنه يعرف أننا لم نعد ندرك مع تقدم العمر والأهوال الغرب من الشرق!. وافقنا فقط لقطع شهوة عفيفي في الملاحاة والحوار أمضينا وقتًا ممتعًا مع رسوم عصر النهضة ونحتها كان عفيفي مطر يدور في إعجاب متبتلاً حول تمثال (العبد ثائرًا) لمايكل أنجلو، ويتأمل التمثال من أعلى ومن أسفل، والبساطي يتأمل عفيفي في دهشة ويبتسم. الحقيقة أن تمثال أنجلو فائق الروعة يكاد ينطلق من مكانه تحررًا ويكاد يصرخ صرخة الحرية لكن البساطي يحب التصوير أكثر مما يحب النحت ولا يصدق أن مطر يحب النحت! أمام الموناليزا كانت وقفتنا الكبرى، مثل كل زوار اللوفر، ما الموناليزا؟ سؤال حلق فوقي وفي

جنبات روحي وأنا أقف متبتلاً أمامها طفل صغير يتيم يغتصب نظرة حب منها من الطفل الصغير اليتيم؟ هو أنا، أنا المشاهد.. الموناليزا تجعلك تشعر بفداحة الظلم الواقع على الإنسان في العالم، باغتراب الإنسان ووحدته وعزلته. يا لليساطة المتناهية يا للسخرية العجيبة ما معنى أن توجد في هذا الكون الفسيح، وتشعر بعد كل هذه المعارك الدامية للإنسان بالعدم؟ هذا ما أشاعته في روحي الموناليزا وليس جمالها ولا ابتسامتها التي تدور معك ولا كونها كانت حبيبة ليوناردو دافنشي، ولا كونها لوحة لم تكتمل، ولا كون دافنشي كان مخترعًا أكثر منه رسامًا. أمام أية لوحة تجد تفسيرًا أمام الجورنيكا أشهر لوحات بيكاسو. موجودة في إسبانيا. تجد تفسيرًا. هذه الصرخة التي تشمل كل شيء. هذا الفزع من الفاشية، لكن الموناليزا تحملك إلى الأثير، إلى السديم الأبيض. إلى اللحظة التي سبقت خلق الإنسان، إلى البرزخ بين الجنة والأرض. يا للموناليزا.

ولم يكن بالطبع يمكن لنا مفارقة اللوفر دون تحقيق رغبة عفيفي في مشاهدة القسم الإسلامي الذي من فرط تعبنا ضللنا طريقنا إليه. لم يفلح اتباعنا للإرشادات ولم تفلح أسئلتنا لموظفي اللوفر بدا أن هناك رغبة قدرية لتعكير صفو شاعرنا الكبير في النهاية اضطررنا للخروج، وقبل آخر باب سيفضي بنا إلى الخارج وجدنا ما يشير إلى القسم الإسلامي مباشرة وبسهولة. ضحكنا ودخلنا، لكن عفيفي لم

يعجب بمعروضات القسم رآها فقيرة وليست كما توقع.

ولا أحب أن أنهى هذا الحديث دون الإشارة إلى روح الدعابة التى شملت بعضنا فى لقائه مع الجمهور، شاركني في ذلك الشاعر عبدالمنعم رمضان وكان ذلك مفاجأة لنا وفى إحدى الندوات المهمة جداً، ندوة حرية التعبير التى أشرت إليها من قبل، وكان قد حضرها السفير المصري والملحق الثقافي المصرى وعدد كبير من الجالية العربية لمحت مخرجه سينمائية مصرية تسجيلية معروفة بصلاتها بإسرائيل تعيش فى باريس منذ سنوات وليس لها من عمل منذ سنوات غير تشويه السلطة المصرية فى علاقتها بالمثقفين. فى هذه الندوة التى شاركتنى فيها الدكتورة لطيفة الزيات وبهاء طاهر تعمدت تخفيف التوتر القائم وقلت إننا فى مصر لا نتأخر عن إصدار أى بيان لمناصرة أى مثقف يتم الاعتداء عليه فى أى مكان، إننا نصدر البيانات إلى درجة أن هناك عدداً من أصدقائنا صار يتولى مهمة إصدار البيانات وتوقيعها فور الاتصال بالتليفون وقلت إننى فى شبابى كنت أخرج في كل مظاهرة ضد أمريكا وتوقفت أخيراً لأن أمريكا انتصرت على الدنيا كلها ويخيل لى أن خروجى فى المظاهرات كان سبب هذا الانتصار! وتحدث بهاء طاهر عن رقابة الإعلام على المسلسلات التليفزيونية لأنها تصدر وتوزع إلى دول بالخليج لديها محاذير كثيرة تصل إلى حد منع تصوير

رجل وزوجته في غرفة النوم فقلت أنا إنه يمكن تصوير رجل وزوجته في غرفة النوم بشرط ان يكون معهما محرما باختصار خرجنا بالدعابة من الندوة الصعبة، ولم نكذب ولم نغازل المستمعين.. لكن لاحظنا أن الترجمة لا تستطيع نقل روح الدعابة المصرية، ثم يشعر بها إلا من زاروا مصر أو يعرفون شيئًا من العربية مثل جاك لاكوتير الذي كان تعليقه انه من زمان لم يزر مصر، وأنه يشعر تلك الليلة كما لو كان يجلس بين أصدقائه في مقهى مصري حميم بالطبع هناك مواقف وفصول طريفة لا تهم القارئ كثيرًا لكن لاحظت أن وجوهًا بعينها من الجمهور كانت تتابعنا في كل ندواتنا، وكانت تحيطنا بالألفة والمحبة كانت في معظمها وجوه نساء مصريات وعربيات اشتاقت للوجوه المصرية وللروح المصرية وكان لافتًا لنظر أن معظم الكتاب العرب المقيمين في باريس لم يهتموا كثيرًا بالاتصال بنا أو متابعتنا إلا في الليلة الأخيرة حين أقام معهد العالم العربي ندوة كبيرة لنا حضرها عدد كبير من الكتاب والشعراء منهم محمود درويش وهدى بركات وكاظم جهاد وآخرون. لقد أدار هذه الندوة الناقد المعروف فاروق مريم بك وكانت الندوة لمدة ساعتين احتجّت عليهما بعض الحاضرات من الجمهور وطالبت أن تمتد الندوة لأربع ساعات لكن ذلك لم يكن ممكنًا بعدما أدخلنا المعهد بهمة بهجت بدر الدين عردوكي إلى جو عربي عريق بعشاء غزير امتد إلى منتصف الليل.

بعد أن بدا أننا ابتعدنا كثيرًا عن الأجواء العربية من فرط كثافة البرنامج المعد لنا ومن فرط كثافة الوجود اليهودي الفرنسي في الندوات، خاصة اليهود ذوي الأصول العربية، المصرية على وجه الخصوص الذين كثيرًا ما تحدث بعضهم عن الحنين إلى مصر لكنهم بوجه عام لم يتحدثوا عن إسرائيل. إذا ببرنامج إذاعي فرنسي موجه عنوانه (شالوم) يحاول الاتصال بنا لكن لا أحد وافق على الحديث فيه. مذيعة في برنامج (بانوراما فرنسية) الإذاعي سألتني صراحة بعد ما أثنت على روايتي (البلدة الأخرى) ما إذا كنت أحب أن أزور إسرائيل قلت: لا. أذاعت البرنامج وتحدثت حديثًا جميلاً عن الرواية وعني ثم قالت لكنه مع الأسف لا يريد زيارة إسرائيل.. كانت ليلتنا الأخيرة عربية صرفًا إذًا. كما كانت ليلتنا الأولى فرنسية تمامًا، وهكذا حلت فينا المسرة في الذهاب والإياب.

الرحلة الرابعة
أسئلة المغرب

في يناير ١٩٩٥ دعيت لحضور المؤتمر التاسع عشر لاتحاد الكُتّاب والأدباء العرب الذي تقرر انعقاده في المغرب أتتني الدعوة الكريمة مع عدد من زملائي الكتاب المصريين، قلت أخيرًا جاءت المغرب الجميلة التي طال اشتياقي إليها، وكنت أظنها أبعد من المنى، كنت عائدًا لتوي من باريس بعد حضور برنامج (الجميلات الأجنبيات) الذي خصص نهاية العام الماضي للأدب المصري، وكنت عائدًا ممتلئًا بالزهو والثقة بالنفس، وكان السؤال الأول: ماذا يمكن أن أرى في المغرب يسعدني أكثر مما رأيت في فرنسا.. وكانت الإجابة الأولى هي (الألفة) فهناك لغة مشتركة في حالة المغرب تفتح لي الطريق في أي وقت.. ولكن هذا السؤال سرعان ما اختفى. ليس مهمًا لي أن تكون المغرب أجمل من فرنسا، أو أكثر إبهارًا لروحي، لكن المهم هو أن أرى المغرب بعرامة الرغبة نفسها التي

رأيت بها فرنسا، أن أصل إلى المغرب بالشوق القديم المعطر الجارف، أن أترك مشاعري الأولى تتحرك.. غايت النشوة التي خلفتها زيارتي لباريس وفرنسا. وتفتحت أبواب الروح لانتشاء جديد عصري أيضاً، وقديم، عربي، أجنبي وبربري، وفي كل الأحوال، غرائبي، احتاج مني هذا إلى وقت من الصمت، وعدم الكتابة، لأنه أثار من الأسئلة أكثر مما أثار من الاجابات، وهي أسئلة اربكتني لبعض الوقت، وغمضت على أكثر الوقت، وليس عندي إجابات عليها كلها، وأود، فقط الآن أن أنقل إليك بعضاً من هذه الأسئلة وبعضاً من الإجابات، ولك أن ترى الإجابات مقنعة أو غير مقنعة، بل لك أن ترفض الأسئلة من الأساس، لكن لابد لك أن تكون على ثقة من أن ما أنقله إليك من مشاعر صادق حتى النهاية.

المدينة البيضاء

هي الدار البيضاء، كازابلانكا بالإسبانية، أو كازا بالإيجاز المغربي، واسمها القديم البربري (الأنفا) وهو اسم يطلق الآن على أكثر أحيائها ثراء، أقول ثراء، ولا أقول جمالاً، لأنك قد تجد الجمال أيضاً في الأحياء الشعبية والأسواق، فلكل جماله، وفي المغرب يتوزع الجمال، الذي تبهرك ظواهره الأولى، الأشجار نظافة الشوارع، اختفاء رجل الشرطة، هو موجود طبعًا لكن بشكل سري أو بشكل لا يبدو فيه قذى في العيون، اختفاء رجل المرور، وبالتالي اختفاء أمراض

الصدر عند طائفة الجنود والضباط المساكين الذين يقفون في إشارات المرور، نظافة السيارات، ندرة الشحاذين إلا في أماكن التجمعات الشعبية والأسواق مثل ساحة مراكش، حالة من الصمت تجلل المدينة، والمدينة بيضاء كلها، تقع على المحيط الأطلسي الذي يمتد أمامها فسيحًا، ومن ثم يتسع الفضاء فوقها وحولها، يتسع الصمت المشبع بالجلال، والدار البيضاء ليست مدينة صغيرة، إنها أكبر المدن الإفريقية بعد القاهرة من ناحية تعداد السكان والمساحة أيضًا، وهي المدينة الصناعية الأولى في المغرب، لكنك لا تشعر بأية درجة من درجات التلوث في الفضاء، حتى في أكثر الأماكن ازدحامًا، أعني الأسواق.

لقد نزلنا في فندق بمنطقة (عين دياب) على المحيط مباشرة، والمنطقة أرستقراطية من الطراز الأول، علّق عليها أحد الموجودين بأنها أشبه ببيفرلي في هوليوود، لم أندهش لأنني لم يسبق رؤية بيفرلي هيلز، ادهشني أنه لا توجد على المحيط العمارات العالية التي توجد على كورنيش الإسكندرية أو نيل القاهرة، لذلك يطير الهواء حرًا وينسكب نظيفًا يغسل بيوت المدينة كلها، لذلك يتمم البعيد بالهواء نفسه الذي ينعم به القريب من المحيط، قسمة عادلة لما خلقه الله للناس جميعًا، الطريق، وحرم المحيط، مسافة عريضة كبيرة، وبعدها لا ترتفع البيوت عن دور واحد أو دورين أو ثلاثة على الأكثر.

قال لي صديقي الذي رافقني في معظم جولاتي بالمدينة: لقد نجح أهل الدار البيضاء في الحفاظ على ما تركه الاستعمار الفرنسي، من نظافة ونظام.

قلت له: قضينا على الاستعمار، نحن وهم لكننا بعد أن قضينا على الاستعمار وطردنا جيوشه من بلادنا قضينا أيضًا على أي مظهر جميل خلفه، انظر إلى القاهرة إبان الاحتلال الإنجليزي والقاهرة الآن، أو انظر إلى الإسكندرية التي كانت عروس البحر المتوسط، صارت مدينة لا تطاق.

قال صديقي: إنه النظام العسكري، النظم العسكرية مثل الرعي الجائر لا تبقي على الخضرة..

كنت أعرف أننا نظلم كثيرًا ثورة يوليو، ولما قلت لا بد أن الحرب التي شنت علينا منذ الثورة، من قبل الدوائر الاستعمارية، هي سبب هذا الرعي الجائر.

قال صديقي سعيد الكفراوي وماذا تقول عن العشرين سنة التي مضت بعد حرب أكتوبر، عشرين سنة من السلام خربت فيها الزمم والنفوس وقام فيها الأغنياء كدت أكتب الأغبياء، الجدد بتدمير كل مظهر جميل.

قلت: هؤلاء ليسوا ثوار يوليو.

قال: هم الذين أتوا بهم.

قلت: على العكس، هؤلاء الذين اغتالوا الثورة أشاح بيده وقال: هه (حتكابر خلينا نمشي)، ومشينا.

كنا في الطريق إلى جامع الحسن الثاني، المسافة بين الجامع وبين الفندق تستغرق أكثر من الساعة مشيًا، وكنا نمشيها بلا اى تعب على كورنيش المحيط. ولم اجد تفسيرًا لهذه القدرة على المشي بلا تعب إلا نقاء الجو وكثرة الأوكسجين، أي قلة التلوث أو انعدامه وفي كل مرة أصل فيها إلى الجامع مرتاحًا أشعر بصحة كلام صديقي. إلى حد كبير وأسكت.

الجامع الكبير

هو أكبر جوامع المسلمين الآن، ومما يبهرك هو أنه تم بأيدى الصناع المغاربة. ويقال إن المهندس الفرنسي الذى قام بتصميم الجامع وفنائه الداخلي والخارجي، يقال إنه قد نظر في جميع تصميمات الجوامع الشهيرة في العالم الإسلامى، من جامع السلطان حسن فى مصر حتى ايا صوفيا بتركيا ليأتى بمشهد مختلف وقد كان. ففى مسجد الحسن الثانى اجتمعت الحرف التقليدية مع القدرات الهائلة التى تقدمها التكنولوجيا الحديثة لنظريات البناء، ولم اندهش حين عرفت أن هذا المسجد الكبير قد تكلف مليار دولار، أو مليارين فى بعض الأقوال، وإن كنت لا اصدق هذا الرقم، والأقرب أن يقال مليار فرنك فرنسى أو حتى مليارين ولم يضايقني أن الشعب المغربى كله، بجميع طوائفه، قد ساهم فى بناء المسجد سواء كان ذلك قسرًا فى معظم الأحوال كما يقال، أو طواعيه ففي النهاية نحن أمام جامع فائق

الروعة المعمارية، ومكان عبادة، وأثر سيبقى حاملاً اسم الملك الحسن وفى الوقت نفسه معلمًا، لعله أهم المعالم، فى الدار البيضاء. فى هذه المرة لم أسأل صديقى عن دلالة هذا البذخ فى بناء المسجد، ولا عن الطريقة التى تم بها توفير الأموال، لأنه ببساطة شديدة، لم يقل لنا أحد حتى الآن إنه لم فى يكن بناء الأهرام شيء من الإجبار. على جدار المسجد من الخارج لوحة رخامية تعلن أنه تم بأيدى مغربية كنوع من الفخر، وهو فخر بلا شك، وبالخارج والداخل معًا لوحة رخامية ضخمة عليها نسب الملك الحسن الثانى الذى يعود به إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، والسؤال الذى قفز إلى ذهنى هو محاولة بعض الملوك أو الرؤساء وصل نسبهم إلى آل البيت، بالتأكيد لا يشك أحد فى نسب الملك الحسن الثانى، ولا نسب الملك حسين ملك الأردن أيضًا، لكن لماذا حاول الملك فاروق عمل ذلك فى مصر من قبل؟ ولماذا فعله صدام حسين فى العراق رسميًا؟ إن السحر التاريخى، والقيمة الدينية الجاذبة لأهل بيت الرسول شيء له أثره الأكيد فى نفوس الشعب العربى، ولكن بشرط أن يكون حقيقيًا كما هو فى المغرب والأردن، لعل ذلك يفسر حب غالبية الشعب للملك فى المغرب أو الأردن، ولعل ما يفسر هذا الحب أكثر هو نجاح الملوك فى النأى بشعوبهم عن المغامرات السياسية والعسكرية، أليس مدهشًا أن يكون دخل الفرد فى المغرب أعلى من دخل الفرد فى مصر، بل

أليس مدهشًا أن يكون دخل الفرد في الأردن أعلى من دخله في مصر، لن أحدثك عن المملكة العربية السعودية؛ لأنك تعرف مصادر الدخل هناك وقلة عدد السكان، ولكن لعلك فهمت ما أخفيه عنك، أقصد تمامًا، نجح الملوك في جعل بلادهم نظيفة ومظاهر الفقر فيها أقل؟ لقد شاهدت في طريقي إلى المسجد منطقة كبيرة على شاطئ المحيط مباشرة من البيوت الفقيرة محاطة بسور يحجبها تمامًا مثل السور الذي يحجب منطقة بولاق الدكرور عندنا، لكن لا أحد فكر في طرد هؤلاء الفقراء من على الشاطئ الجميل، ولا نقلهم بعيدًا عن الحديقة، تركوا في المكان الجميل، لم يفكر أحد في بناء عمارات وفيلات استثمارية مكانهم! على الأقل حتى زيارتي هذه.

قال لي صديق آخر إن الملوك كانوا دائمًا على علاقة وثيقة بالغرب، الذي جاهد ليحتفظ لبلادهم بنظافتها ومستوى معيشة أفضل حتى تعرف النظم الجمهورية التي ركبت حصان الثورية إلى أين انتهت، ويزداد فيها الندم!. الغرب الذي حافظ على هذه النظم هو نفسه الذي استدرج عبدالناصر إلى حرب ١٩٦٧ وهو الذي استدرج صدام حسين إلى فخ الكويت، وهو الذي ترك الحبل على الغارب للعقيد معمر القذافي فعاد الليبيون إلى الحياة على لبن الماعز والغنم، ووجدت نفسي أسأله إلى هذا الحد كان تخطيط الغرب؟

ونحن ألم نخطئ في شيء قط؟ لم يرد صديقي وترك السؤال معلقاً، وتركني أمشي في الشوارع الشعبية أتفرج على المنتجات الزراعية المغربية فأجدها أفضل وأشهى من منتجاتنا نحن أهل الزراعة وأهل النيل، في الطريق إلى مراكش حوالي خمسمائة كيلو متر، لم تنقطع الخضرة لكن لذلك حديث سيتأخر قليلاً، ونحن نقتحم الصحراء ونتحدث عن التصحر الذي يهاجم وادي النيل، لا تقل لي إن المغرب بلد قليل السكان. حوالي ثلاثين مليوناً لأني سأقول لك إن المغرب رقعة أرض صغيرة، وثرواتها أقل من ثروات مصر، لا تقل لي إن المغرب يقع على البحر المتوسط والمحيط لأنني سأقول لك إن مصر تقع على البحر المتوسط والبحر الأحمر وبها خمس بحيرات كبيرة نجتهد طوال الوقت في ردمها وتخريبها دون خوف من الله الذي خلق من الماء كل شيء حي، لقد وجدت وجودي في المسجد الكبير فرصة للصلاة والدعاء على المفسدين في الأرض. والدعاء للصالحين من أبناء الوطن، هذا هو ما بقي لي.. لم أعد قادراً على مقاومة المفسدين، ولا العمل مع الصالحين، يخيل لي أنني كلما اشتركت في مقاومة شيء ازداد شراسة ونجاحاً من فرط ما قاومنا وما حدث من كوارث. أذكر أنني أثناء حرب الخليج جاءني أحد الشباب وقال لي إن الطلاب في الجامعة يقومون بمظاهرة ضخمة لكن قوات الأمن تمنعهم من الخروج إلى الشارع، سألته ماذا يريد مني قال أن أنهض

لأشـــــارك مـع الطـلاب، هـذا واجـب علـى الأدبـاء والفنانين. ابتسـمت وقلت له الحـقيـقـة المـرة إننى لا أسـتطيع أن أفـعـل مـا يريد لأني ولطوال ربع قـرن أشـارك في كل مظاهرة ضد الأعمـال الأمـريكيـة أي ضـد أمـريكا، وكـانت النتـيـجـة فى النهـاية أن أمـريكا أصـبـحـت القـوة الأولى فى العـالم. قلت له ربمـا لو امتنعت أنا بالذات عن الخـروج فـي مظاهرة ضــد أمريكا انهزمت أمريكا وتقهقرت وظل الشاب ينظر لىّ مبهوتًا ثم ضحك مع الضاحكين ممن كانوا يجلسون معى. قلت له بعد ذلك: أنا الآن من حزب التوقيع على البيانات، إننى أساهم فى التوقيع على أى بيان ضد الباطل ومع الحق، ويستطيع أى شخص أن يحرر بيانًا من هذا النوع أن يضع اسمي دون أن يسـتـشـيـرني، وهذا يحـدث كـثيـرًا، على أني لا أريد أيها القـارئ أن أصيبك بالسـأم الذى أصاب جيلى. دعنا مع دهشة الأسئلة المغربية.

الجامعة.. ترمومتر المستقبل

أجل.. لو أن لدى أية دولة من الدول أجهزة قياس رأى دقيقة تستطيع دراسة آراء طلاب الجامعة، لعرفنا شكل المجتمع فى المستقبل أو عرفنا الكثير عن توجهاته. طلاب الجامعة هم مثقفو الطبقة الوسطى وصناع الرأى العام فى المستقبل وقادته، خصوصًا فى دول تتسع فيها مساحة العلم والمتعلمين مثل مصر والجزائر والمغرب وسوريا والعراق وتونس.

وفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك في الدار البيضاء كانت ندوات المؤتمر التي شغلت ثلاثة أيام في الصباح والمساء حضرت معظمها، لم يشغلني كثافة الحضور الطلابي فالطلاب عادة ما يأتون برغبة أساتذتهم، أو حبًا في الاستطلاع خاصة أن المتحدثين في الندوات من أكثر من عشر دول عربية، ولقد استمتعت واستفدت كثيرًا أنا شخصيًا من الأبحاث التي ألقيت في المؤتمر خاصة أبحاث د. محمد برادة وعبدالفتاح كليطو وبنعيس بوحمالة ومحمد لطفي اليوسفي. الثلاثة الأول من المغرب والأخير من تونس، وتستطيع أن تضم لهم سعيد يقطين وحميد الحمداني الذي أسعدني الحظ بسماعهما أيضًا، وطراد الكبيسي من العراق. من زمان لم نسمع شيئًا من العراق لذلك جاء صوت طراد محملاً بالجدة النقدية باعثًا على الحنين إلى العراق وأصدقائي هناك. ولن أستطرد في الحديث عن المساهمات النقدية للضيوف لأني كما قلت لله لن أتحدث عن المؤتمر كثيرًا هذا برغم أن حديثي عن الأبحاث والنقاد سقط سهوًا من المطبعة في المقال الذي نشرته من قبل عن المؤتمر في مصر في جريدة أخبار الأدب لكن سعادتي كانت غامرة بالتعرف على (عبدالرحمن الأهدل) من اليمن، كل يمني يحمل خصائص الأمة اليمنية، في الوداعة والذكاء، وعبدالرحمن الأهدل لخص لي ذلك بامتياز، لم يسعدني الحظ بسماع أحمد اليبوري من المغرب ولا

صديقي عبدالقادر الشاوي الذي لا أعرف لماذا كان فاروق عبدالقادر مصرًا أن يسألني أمامه . أقصد أمام عبدالقادر . ما إذا كنت أعرفه أم لا .. ولم يسعدني الحظ بسماع بقية المشاركين في المؤتمر لكن قراءة عامة للأبحاث وعناوينها تكفي للاطلاع على مدى الجدية لكن الجدية الحقيقية كانت في جماهير الطلاب التي حضرت وحرصت على حضور الندوات باستثناء يوم الجمعة .. يوم الجمعة؟! لماذا؟! لأنه يوم عمل في المغرب، التي لا تزال تعطل في الآحاد .. مثلنا في مصر قبل الثورة عام ١٩٥٢ .. وأن يقاطع الطلاب المحاضرات يوم الجمعة، ويكون حضورهم نادرًا أمر يستحق التأمل. والإجابة بسيطة هي أن التيار الأصولي يسري ببطء بين طلاب الجامعة، كان يمكن لهم الحضور للندوات بعد الزوال، لكنهم لا يفعلون ذلك أيضًا يو الجمعة، التيار الأصولي يسري حثيثًا في الحقيقة. لقد ألقيت كلمتي، مشاركني المتواضعة في الأبحاث في يوم كان فيه الدكتور محمد برادة وبنعيس بوحمالة وسعيد السريحي من السعودية. لقد كان يومًا نقديًا حافلاً وعامرًا، كان اليوم التالي مباشرة، وكان يوم الجمعة، وتأخرت الندوة إلى ما بعد الزوال، إلى المساء حتى صار الحضور كبيرًا، وألغيت الندوة التالية لها. وكان من نتيجة هذه الندوة أنني أمضيت اليوم الثالث كله، ومعظم الأيام بعد ذلك بين الطلاب. في الجامعة أو في الفندق أو في الأمسيات الشعرية لا يكفون عن

توجيه الأسئلة لي من كل نوع، أول ما لاحظته هو ارتفاع مستوى الأسئلة، وأن اللغة الفرنسية التي يجيدها جميع الطلاب تفتح لهم آفاقًا كبيرة من المعرفة الإنسانية، وتساءلت في نفسي لماذا حقًا ألغيت اللغة الإنجليزية من المدارس الابتدائية عندنا؟ لماذا اعتبرناها لغة استعمارية فأصبحنا حتى ندرسها بلا اهتمام؟ إلم يكن ذلك خطأ كبيرا، الآن هناك محاولة لاستدراك الأمر ستعود اللغة الإنجليزية إلى المدارس الابتدائية، وسيحتاج الأمر إلى وقت حتى يكون لدينا كوادر التدريس المناسبة والحقيقية، المهم أن نعود. لقد أهملنا اللغة الإنجليزية دفاعًا عن اللغة العربية لكن نظمنا التعليمية أضاعت اللغتين معًا، إن اللغة الفرنسية في المغرب تستشري وتفتئت على العربية هذا حقيقي، لكن أرجو ألا يكون الحل إلغاء الفرنسية بل التقدم في العربية، والمغرب يحتاج إلى ذلك حقيقة، لم يختفى إذًا معرفة الطلاب بالفرنسية ولم أكره ذلك لكن الذي أثارني هو أن كثيرًا من الأسئلة كانت عن الحل الإسلامي لمشاكلنا العربية، ألا يكون أفضل من الحلول المطروحة أو التي سبق طرحها في العالم العربي؟! قطاع كبير من الطلاب يسأل في ذلك برومانسية حقيقية بجموح الشباب وعفويته وبلا عنف، لذلك اندهشت كثيرًا من العنف في الحوار الذي قوبلت به مداخلة محمد لطفي اليوسفي (فتنة المتخيل وسلطان القدامة) لكنه كشف لي عن الوجه الآخر المستتر للظاهرة، إن التيار

الأصولي كامن يكسب أنصاراً ولا يتأخر في الأعلان عن نفسه إذا دعت الحاجة، ومداخلة اليوسفي تناصر المحرم والإباحي والمتخيل. والسؤال الآن هل ينجح التيار الأصولي شيئاً فشيئاً في احتلال المشهد المغربي، هل يمكن أن نفقد المغرب فتكون الجزائر ونستمع إلى محمد الأشعري الشاعر المغربي ورئيس اتحاد الكُتاب في بلد آخر يلقي بكلمة موجعة بليغة عن الحال التي وصلت إليها أوطاننا وعن مأساة الكتاب في الجزائر، أقصد المغرب!! لقد كانت كلمة الأشعري من أبلغ ما قيل في الافتتاح، بالضبط كما كانت مداخلة محمد برادة وعبد الفتاح كليطو، فضلاً عن الحضور الجميل لمحمد برادة كشخص. كفنان، حضور فيه دماثة المدرك للروح الإنساني فلا يبدو أبداً من الحديث مع برادة، أنه يعرف حديث الانتقام أو الغضب، حضور فيه عمق وصدق. لمحمد برادة في مصر مساحة كبيرة من الحب وأنا واحد من سكان هذه المساحة، أعود لأقول ما الذي يجعل التيار الأصولي يشتغل بطول الوطن العربي، ولماذا هو أكثر في نظم الحكم الجمهورية؟ لاحظ أن المغرب لم تصل إلى أن تكون الجزائر أو مصر أو سوريا من هذه الزاوية. يمكن أن تقول لي إن النظم الملكية تستخدم القمع من أول مواجهة، وأوافقك وأسأل وماذا تستخدم النظم الجمهورية؟ إذاً لا مناص عن الاعتراف باختلاف ميزان العدل أكثر في معظم النظم الجمهورية أكثر مما هو في النظم الملكية

العربية. إن كل ما هو مطروح من وسائل لمقاومة هذا المد الأصولي، بما فيها الحوار والنداء بإطلاق حرية تكوين الأحزاب الدينية يفيد في تقليص هذه الظاهرة كما يفيد العدل وإشاعة العدل أو العمل من أجل تحقيق أقصى درجاته، والعدل لا يعني المساواة أمام القضاء فقط ولكن يعني التنمية وإيجاد فرص عمل ورعاية صحية حقيقية لدافعي الضرائب ورعاية تعليمية... إلخ ما يتمتع به دافعوا الضرائب في النظم الديمقراطية..

سؤال القراءة / الكتابة

لعل هذا من أهم الأسئلة، في المغرب حركة قراءة، لا تسألني هل يقرأ الرجل العادي لأن الإجابة هي إن الرجل العادي لا يقرأ في الوطن العربي كله، المواطن العادي إما أمي وإما جالس أمام التليفزيون. أنا أتحدث عن فئات المتعلمين.

وما دام في المغرب حركة قراءة فهناك أيضاً حركة كتابة. حالة كتابة خصبة ومتطورة ونحن منذ وقت طويل نعرف أسماء مغربية مهمة في سماء الفكر العربي. محمد عابد الجابري وعبد الله العروي مثلاً. وفي سماء النقد العربي، محمد برادة وعبد الفتاح كليطو مثلاً ومنذ الستينيات وصلتنا كتابات قصصية لمحمد زفزاف، وتتوالى الأسماء في المغرب، وعلينا، منها أسماء لنقاد ذكرتهم فيما مضى من حديث وأسماء لنقاد لم أذكرهم مثل عبد الحميد عقار الذي

كان له حضور شخصى تنظيمى جميل فى المؤتمر ومبدعين لم اذكرهم مثل ميلودى شغموم وسالم حميش. للأول رواية جميلة ليست معروفة لدينا هى (عين فرس) وللثانى رواية جمية ومعروفة لدينا هى (مجنون الحكم) وللاثنين أعمال أخرى بديعة تنضم لأعمال زفزاف وبرادة. والحقيقة أن قائمة المبدعين فى المغرب كبيرة ولا بد أن أسماء ستسقط منى، واكتفى أن أضيف أسماء شعيب حليفى ومحمد الشرقى فى القصة والرواية، أما قائمة الشعراء فهى أيضًا طويلة، ابتداء من محمد بنيس حتى عبد الدين حمروش. والسؤال هو هل يمكن أن تتصدر المغرب المشهد الفكرى والأدبى فى حياتنا العربية؟

انملاحظ أن هناك أيضًا حركة ترجمة نشطة، وأننا هنا فى مصر نقرأ بشكل جيد ما تفرزه المطابع المغربية - يعرف ذلك أصحاب دور النشر المغربية فى معرض الكتاب السنوى بالقاهرة، لا بد - والذى يلاحظ مجلاتنا المصرية يجد هذا الحضور الكثيف، نقديًا وفكريًا بالذات فى مجلة كبيرة قيادية، مثل فصول. وفى حياتنا النقدية المصرية كثيرًا ما نسمع حديثًا عن نوع (كتابته متأثرة بالكتابات المغربية). عندما يدور الكلام حول مقالة نقدية صعبة لأحد النقاد الشباب. والمهم هنا هذا التأثر ولا نقف كثيرًا عند الصعوبة أو السهولة والحقيقة أن تأثير الحركة المغربية الفكرية والنقدية أو على الأقل تداخلها، فى ثقافتنا المعاصرة أمر ظاهر ولا يمكن إنكاره، يختلف

الأمر كثيرًا في تأثير الإبداع، الإبداع المغربي محل تقدير كبير في مصر، وهو مقروء، لكنه لا يؤثر نفس تأثير الفكر والنقد المغربي، ليس لأنه أقل من الإبداع المصري، ولكن لأن الإبداع المصري أكثر اتساعًا، وهذه المسألة لا تخص المغرب فقط، بل تخص كل الدول العربية فأنت تستطيع أن تجد كاتبًا أو اثنين أو ثلاثة أو خمسة من الطراز الأول في كتابة القصة مثلا في بلد ما لكنك في مصر تجد عشرة أو أكثر. طبعًا التعداد وكم المتعلمين يلعب دورًا أساسيًا هنا. لكن النتيجة التي تصلك بقوة أن الهوامش، تلعب دورًا جاذبًا للمركز في كثير من الأحيان، أو على الأقل هناك نوع من الاكتساب الثقافي بين الاثنين. والحقيقة أن الإنتاج الإبداعي العربي الآن، أقول العرب على العموم، صار يشكل تحديًا للإنتاج الإبداعي المصري، المشكلة هي أن كل دولة عربية على حدة لا تستطيع أن تقدم ما تقدم مصر. والسؤال هنا هو أنه قد حان الوقت، وغالبًا منذ سنوات ألا نتحدث عن دور ريادي واحد لدولة واحدة. وإذا تذكرنا حجم اهتمام الطلاب في جامعات المغرب بالثقافة بوجه عام، وكثافة اتصالهم بجديد ما تنتجه أوروبا، وفرنسا خاصة، وأن نفس الأمر يحدث ولو بدرجة أقل في تونس، وأنه سيأتي يوم تعود فيه العراق إلى الساحة الثقافية بقوة، إذا تذكرنا ذلك كله ونظرنا إلى كثافة الحركة الإبداعية في بيروت، وفلسطين، وسوريا، وبحثنا عن كتاب أصلاء وهم

كثيرون في ليبيا، يكفي أن أذكر لك الكوني والفقيه من المبدعين وعلى فهمي خشيم من المفكرين وعدد كبير من شباب الكتاب، وإذا أيضًا تذكرنا أنه في السعودية حركة شعرية وقصصية فتية رغم كل القيود المعروفة وأن الأردن لها إسهامها وإن بحالات قليلة، أمجد ناصر مثلاً بلور لنفسه طريقًا في الشعر مميزًا، ويلقي بظله شيئًا فشيئًا على شباب الشعراء، والأصوات في القصة عديدة من إلياس فركوح وإبراهيم نصر الله إلى بسمة النسور، ويمنعني عجزي عن التمييز بين الأردنيين والفلسطينيين من ذكر أسماء أخرى فقد تكون فلسطينية وأنا لا أعرف أو العكس.. على أي حال العالم العربي صار يغلي بالإبداع وإن كان لا بد من مناطق متميزة بعد القاهرة فهي بيروت ودمشق والمغرب والعراق المؤجل، لا نستطيع أبدًا أن نضع المغرب الآن في غير المقدمة.

سؤال مراكش؟

الطريق إلى مراكش من الدار البيضاء يستغرق وقتًا طويلاً. حوالي خمس ساعات، وهو طريق لا تفارقك فيه الخضرة، وعندما بدأت تظهر البيوت الحمراء عرفنا أننا اقتربنا من المدينة العريقة، مراكش تعني المغرب، والمغرب تعني مراكش. هكذا في وجداننا نحن أبناء الشرق. مراكش ليست مثل الدار البيضاء إذًا، مراكش لها في القلوب حضور التاريخ، قيامة الماضي، مراكش لا تثير أسئلة في

العقل، تثير اضطرابا في الروح، حالة من جيشان الشعور تنذر ببكاء صامت، أو تبشر ببكاء صامت، بكاء يأتي من الانتشاء العميق بالمكان وانفاس مراكش تجربة روحية حسية صوفية فوق حدود العقل، مراكش تجربة كتابة فنية. السؤال هو لماذا كل هذه المشاعر التي تهدر فجأة في قنوات الروح على أبواب مراكش؟

والإجابة لا يمكن أن يقدمها العقل، تقدمها الروح نفسها في استسلامها لأنفاس المدينة القديمة، لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا بعمل فني، قصة في حالتي، ومن ثم أحتاج إلى وقت أكثر. إذاً أكتفي الآن بما تقدم من أسئلة وأختزن أنفاس (مراكش) بعض الوقت.

الرحلة الخامسة

بواتييه. بوردو. عن القراء والرقص أيضاً

ماذا يقرأ الكُتّاب؟ عنوان طريف لمؤتمر جاد ينعقد في جامعة بواتيه بفرنسا منذ عشر سنوات الآن ويحضره في كل مرة عدد ممتاز من كُتّاب العالم. ولقد حضرته أنا عام ١٩٩٩ وجرت وقائعه في الفترة من ١٦ إلى ٢٩ نوفمبر مع عشرين كاتبًا منهم (جلبرت آدير) من إنجلترا و(ميشيل ديجوى) من فرنسا و(الفريد كوتليريتش) من ألمانيا و (روبير لافون) من فرنسا و(بير نارد شلنك) من ألمانيا و(فرانك فينالى) من فرنسا و(هيلين زاهافى) من إنجلترا و(إريك كورميير) و(جيرالد ليبلانك) من كندا وغيرهم، لقد سبق لهذا المؤتمر الجاد أن استضاف في سنواته السابقة من الكتاب العرب أدونيس والطيب صالح وصنع الله إبراهيم ومحمد شكرى وإلياس خورى وهدى بركات وعبدالوهاب البياتي، ولقد كان من أبرز ضيوفه هذا العام الروائى وكاتب المسرح الفرنسي

الذي يكتب بالفرنسية والأوكسيدانية، لغة منطقة في جنوب فرنسا. (روبير لافون) الصديق المحب للعرب والمناصر للقضايا العربية وبالذات القضية الفلسطينية، وكذلك كان من أبرز ضيوفه الشاعر الفرنسي (فرانك فينالي) الذي افتتح المؤتمر بلقاء معه ألقى فيه بعضاً من قصائده، ومن دواوينه المشهورة في فرنسا (لماذا تبكي، قل، لماذا تبكي؟ لأن السماء زرقاء. لأن السماء زرقاء). ومن كتبه (الحرب الجزائرية) وهو كاتب وشاعر معروف باحتجاجه ضد العنف والقهر، وهو من مواليد ١٩٢٦ في أحد أحياء باريس الشعبية، وكثيراً ما تتردد في شعره ذكريات باريسية وللأسف قد أصيب في الفترة الأخيرة بسرطان في الدم مما لون شعره وكتاباته، ولقد تحدث عن هذا العالم الذي يتعذب فيه الإنسان مما يدهشه أو يخيفه أو يواجهه، وتحدث عن تجربة قراءته للصحف في الصحفة، صحيفه مثل (الإيكيب) أو (الموند). أما (روبير لافون) فهو كما قلت كاتب مسرحي وروائي وشاعر أيضاً ومحب للعرب، وتمثل أعماله مكانة ممتازه في الأدب المعاصر وكذلك كتاباته النقدية ومقالاته، وهو شيخ يتمتع بحس فكاهي جميل في ردوده ووجه بشوش وود تشعر أنه صديق قديم لك، وهو كما قلت من أقلية تتحدث الأوكسيدانية في فرنسا، وهي لغة قريبة من الكطالونية في إسبانيا، وهو يكتب بها كما يكتب بالفرنسية، ولقد كان أكبر الموجودين سناً، فهو من

مواليد ١٩٢٢ إلا أنه كان يبدو متمتعًا بحيوية وافرة لمثل من هم في سنه، ولقد حفلت ندوته بجو بديع من الاحتفاء حيث تناوب عدد من تلاميذ وتلميذات الجامعة على قراءة مشاهد من مسرحياته، ومسرحياته المؤلفة بالأوكسيدانية تصل إلى أكثر من عشر مسرحيات كما تتجاوز رواياته العشرين رواية منها رواية (العيد) لافيستا التي تتجاوز الألف صفحة، ولقد تحدث عن أهمية القراءة له حتى وهو في هذه السن، وكيف ان قراءاته متنوعة باعتباره مؤرخًا أيضًا للأدب واللغة وللجغرافيا الاقتصادية فهو لا يهمل أبدًا ما هو جديد في هذه الموضوعات، ومن أهم ما يقرأ وفي مقدمة قراءاته الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية دائما وبالطبع شعراء التروبادور الذين لولا أصواتهم القديمة لم يكن ليصبح هو أبدًا.

أما (جلبرت آدير) فلعله كان أهم الضيوف من القارة الأوروبية، وهو كاتب إنجليزي مرموق له أربع روايات هي (حب وموت في جزيرة بعيدة) و(الأبرياء المقدسون) و(موت المؤلف) و(مفتاح البرج) آخر ما صدر له عام ١٩٩٧ . وهو يعيش في لندن ويكتب في صحيفة (الصنداي تايمز) و(الإسكواير) ويحول قصصًا عالمية للأطفال، وله دراسات سينمائية وترجم عن الفرنسية أشعارًا لسان جون بيرس كما ترجمت له عدة أعمال إلى الفرنسية، وبشكل عام يعد جلبرت آدير كاتب الكتاب كما يقال في الإنجليزية، ولقد تحدث عن رواج الأعمال العاطفية وسهلة القراءة

وهي الأعمال التي تفوز بجوائز الصحافة في بلاده وتحدث عن اقتراح بجائزة للروايات الصعبة ذات الحبكة كثيرة التعقيد، وتحدث عن تاريخ الحبكات الروائية المعقدة منذ سر المونت كريستو حتى اسم الوردة لامبرتوايكو الذي استفاد من ذلك. وهكذا كان حديث جليبرت عن الكتابة أكثر منه عن القراءة، وتحدثت أنا عن القراءة كفعل نجاة لكاتب مثلى فى بلد معين من العالم الثالث، أو ما اصطلح على تسميته كذلك، فكما ان الكتابة فعل نجاة في كثير من فوائدها شفاء من التوتر والقلق الذي قد يعصف، بل يعصف بالكاتب فى مجتمعاتنا، فكذلك القراءة؛ لأنها تتيح للكاتب فرصة الوحدة، والعزلة، لكن وشأنى فى ذلك مثل كثيرين، لم أستطع ان اقرأ ادبًا خالصًا فقط، بل امتزجت قراءاتى بالفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية التى درستها عن قرب، والأهم من ذلك أن القراءة فى السياسة والاقتصاد نالت جانبًا من الحظ خاصة فى مقتبل العمر، الآن اقرأ أكثر السير والتراجم والشعر والرواية وبعض الكتب التي لا تنفد متعتها مثل الف وليلة ليلة وكتاب لا احاول أبدا أن افهمه لأبى العلاء المعري وأقرؤه كثيرًا لأستمتع بإيقاعاته الموسيقية فى لغته الصعبة ألا وهو كتاب الفصول والغايات. من الممكن جدًا ان افهمه لكنى لا احاول، وأكتفي بالصوتيات فيه، وتحدثت عن القراءة في بلادنا وكيف أن القراء عندنا يقرءون الآداب العالمية التى تصل إليهم، وليس لدينا إحساس بالامتلاء الذي هو عند

الأوروبي الذي قد لا يهتم كثيراً بآداب الأمم الأخرى، نحن نقرأ أدب الغرب والشرق، بل إن الشرق وأمريكا اللاتينية وإفريقيا صار يأخذ مساحة كبيرة الآن في قراءات الكتاب».

أمَّا ميشيل ديجوي فهو شاعر ومترجم وباحث فرنسي من مواليد ١٩٣٠ وقد ترجم أعمالاً فلسفية لهيدجر وبول سيلان، وترجم من الأدب الأمريكي دامسن مع (جي. بي. جومي) مجلة للشعر وترجم فيها لدانتي وهولدرلين وكتب مع (جي. بي. دبيي) كتاب (رينيه جيرار ومشكلة الشر) وهو عضو في أكثر من هيئة ثقافية فرنسية وترأس أكثر من مؤتمر للشعر الفرنسي وهو رئيس اتحاد الكُتّاب منذ عام ١٩٩٢. وله دواوين كثيرة نشرت أغلبها في جاليمار وحازت على جوائز عديدة فرنسية مثل جائزة فينيون عام ١٩٦٠ وجائزة ماكس جاكوب ١٩٦٢ وجائزة مالارميه عام ١٩٨٩ ومن دواوينه (أفعال) و(تشكيل) وقصائد الستينيات، وتحدث عن اختفاء الكتاب، هذه العلبة الصغيرة بين يدينا أو مركونة في مواجهة الحوائط، صارت المكتبة عجوزاً، وهو يتحدث عن مكتبته العجوز، وتحدث عن أصدقائه القدامى في الكتب، أرجون، وفاليري وكلوديل، والكسيس ليجيه، وتراكل، لقد مر وقت طويل عليه وتغير كل شيء فيه إلا الضمير الذي هو يتفاعل مع الزمن ليظل موجوداً، وتظل هناك إمكانية دائمة لاكتشافه بالقراءة، إن زمن القراءة يبحث عن الحقيقة، وزمن بروست هو زمن

كـاتب يبـحث عن سنوات الأسلوب الجـمـيل أليست المعـرفـة هى مـعـرفـة القراءة؟ يتسـاءل والإبداع إبداع كتاب؟ والقراءة قراءة المعرفة والأعـمال المبـدعـة، من قبل الكتاب (إنها حقًا لدائرة جميلة. إن مـعرفتي هى من خـلال الكتب. وأنا لا أعرف أبدًا الفعل أو العمل. إذا قدر لى أنى بقيت وحدى فى عـالم دمرتـه الكارثة كما يحدث فى الأفلام فلن أستطيع أن أعيد عمل ما تم فعله. لقـد انتهى الإنسـان الصـانع..) أمـا هيلين زاهافي (المولودة في لندن لأبوين يهوديين جاءت فيه الأم من أوديسا بروسـيا وجـاء الأب من بولنـيـا ووصل كـلاهـمـا إلى إنجلتـرا أثناء الحـرب العـالمـيـة حين هاجمت ألمانيا بولندا. لقد درست هيلين الروسية فى انجلترا وعـملت بالـتـرجـمـة وأصـدرت روايتـهـا الأولى (عطلة نهـاية الأسـبـوع القـذرة) عـام ١٩٩١.، التى ترجـمت إلى عدة لغـات ثم حولت إلى فـيلم سينمائى أخرجه ميشيل واينر عام ١٩٩٢ ثم أصـدرت روايتها الثانيـة (قـصـة حقـيـقـيـة) عام ١٩٩٤ ثم رواية (دونا والرجل السـمـين) عـام ١٩٩٨.، وفى هذه الروايات تتـجلى العـلاقـات بين الجنس والإرادة، تحطيم التابوهات والأنماط المستقرة والعنف الموجه إلى المـرأة.. ولقد قـدمت هيلين قـراءتها بوصـفـها قـراءة للمدينة كما هى قراءة للكتب، مدينة لندن بالتحديد، فالمدينة مثل النص يمكن قراءتها تمامًا، قراءة أبنيته واستعاراتها وجملها اللغوية الحضرية حين يعبره المرء بالسيـارة ويتـجـول فى أحيـائهـا أو يغوص فى

عجائب المترو تحت الأرض، إنها قراءة مليئة بالخوف والبارانويا، لكن هذا هو ما تعود عليه الشخص ويعرفه ومن ثم فهو بنساه لكنها تحافظ على هذه القراءة بقدر الإمكان كما يحافظ الإنجليزي على قراءة باريس حين يأتي لزيارتها أو للتعلم فيها فهو يرى شوارعها جيداً ومتاحفها وتنسيق أشجارها وطعم الحرية فيها وهكذا..

من كندا، من المنطقة الناطقة بالفرنسية كان هناك كاتبان، أريك كوربيه، وكان أصغر الشعراء سناً فهو من مواليد ١٩٧٩، جيرالد ليبلانك الذي نشر أولى مجموعاته الشعرية عام ١٩٨١ وله حتى الآن ست مجموعات شعرية والاثنان من منطقة (برونزفيك الجديدة) لكن الأول من مدينة روبرت فيل والثاني من مدينة بوكتوش ومنطقة برونزفيك تقع في اقليم أكاديا بكندا، يقول جيرالد ليبلانك إن تقريره عن القراءة سيكون متوحشاً فهو من مواليد أمريكا الشمالية في قرية بوكتوش في قلب قرية أكادية وهي طبعاً غير أكاديا القديمة بالعراق - وهي قرية صارت مشهورة بعد رواية للكاتب (أنتونين ميليه) عنها لكنه ولد في منزل فقير كان خالياً تماماً من الكتب وعندما بدأ يقرأ وسقطت الكتب بين يديه بدا كمن امتلك عالماً جديداً، وهكذا أخذ القراءة حيث كان يجدها ومن أي نوع، علمية، خيالية، روايات، روايات شعبية، ثم الشعر الذي وجده أكثر تصميماً، وهكذا قرأ رامبو، بودلير، أبولونير، وصار لدى الإحساس بأنني امتلك لغة أخرى

داخل لغتي الأصلية في عام ١٩٩٨ كنت اقرا كما اتنفس اكسيجينًا نفسيًا من أجل الفهم وأيضًا لتأكيد الحدوس والانبعاثات النفسية. قرأت (ربكة) دون ان أفهم كلمة واحدة من الألمانية، ولقد قرأت كل نص بأذن أكادية.

قل لي من تقرأ؟ سألني أحد المعجبين مرة. إن قراءاتنا هي التي تحددنا.

في بوردو

لم يكن الوقت كله الذي قضيته هناك في بواتييه، خطفت ليلة إلى بوردو لحضور ندوة ولقاء مع الجمهور في جمعية صغيرة للفنون التقليدية، تركت بواتييه الصغيرة الهادئة، آخر مكان وصل إليه العرب في أوروبا بعد أن استولوا على الأندلس، ومن المؤكد أنهم لو انتصروا في بواتييه لما استطاع أحد أن يوقفهم في أوروبا كلها، لقد عادوا من فرنسا إلى الأندلس. لكن بعد سقوط الأندلس أخذ الكثير من المسلمين عبيدًا إلى فرنسا، إلى بواتييه وما حولها من ريف من اجل أن يعملوا بالزراعة التي اجادوها في إسبانيا لذلك نجد بعض السحنات السمراء في ريف بواتييه وبواتييه دخلت إلى حياتنا في العصر الحديث لأول مرة مع الزعيم الوطني مصطفى كامل الذي حصل من جامعتها على ليسانس الحقوق ولا يزال هناك تقليد قديم في بواتييه أن تستضيف بعض طلاب العلم من القانونيين العاملين في وزارة العدل، ولقد قابلت احدهم هناك.

(بوردو) مدينة مختلفة، أنها أكبر مدن الجنوب الفرنسي وأغناها فهي عاصمة مزارع العنب ومدينة النبيذ في العالم وسكانها برجوازيون أثرياء، فرنسيون طبعًا وليس الأجانب، وهي تقع على نهر الجارون أكبر أنهار فرنسا من ناحية العرض على الأقل، الذي يصب في المحيط الأطلنطي. هذا المحيط اللعين الذي يقذف بحمم البرد على بوردو نكاد يقتلني لأني تصورت أن بوردو بما هي في الجنوب ستكون أكثر حرارة من بواتييه وباريس فإذا بالحرارة فيها تنخفض عن الصفر وندمت لأني تركت تبالطو في بواتييه وكدت أتجمد في شارع فيكتور هوجو فلم أمشي كثيرًا وانتظرت الندوة في جمعية الفنون التقليدية...

كان معي الشاعر العراقي والقاص الجميل صاحب المجموعة القصصية الإنسانية البديعة (وداعًا أيها الطفل) أعني به (جبار ياسين) الذي خرج من العراق عام ١٩٧٦ وهو بعد في الثانية والعشرين من عمره ولم يعد للعراق ولم ينس العراق.

ولقد كان جبار هو مترجمي في بواتييه في الندوة ومترجمي هناك ومعه كلود موروسيه أستاذة الأدب المقارن التي قرأت النص الفرنسي، وكان جبار رفيقًا جميلاً في كل الرحلة وهو أحد المسئولين عن النشاط الثقافي في جامعة بواتييه.

كانت الليلة في بوردو له ولي في هذه الجمعية الصغيرة التي تشرف عليها فتاة لامعة نشطة هي (إيمانويل بابينو) ولقد كان برنامج الندوة بسيطًا ومدهشًا، يبدأ بلقاء لي مع الجمهور أقرأ فيه شيئًا من روايتي البلدة الأخرى بالعربية ثم تقرأ إيمانويل بالفرنسية من الرواية المترجمة. وبعد ذلك أتحدث عن روايتي التي ستصدر قريبًا بالفرنسية، رواية لا أحد ينام في الإسكندرية ثم أجيب عن أسئلة الجمهور. بعد ذلك يبدأ جبار يلقي شعره الجديد عن أطفال العراق وإنسان العراق المعاصر.

ولقد شهدت الليلة مناقشات جميلة حول الرواية في مصر والشعر في العراق ثم قدمت راقصة جزائرية شابة فاصلاً من الرقص الشرقي الممزوج برقص الجبال. ولقد كانت الفرقة الموسيقية المصاحبة لها كلها من المغاربة والجزائريين، وهي الفرقة التي صاحبت جبار في قراءاته الشعرية. لقد قرأ الشعر على دقات الدفوف والطبول فكانت تجربة مثيرة بحق وشجية، ولقد قامت إيمانويل التي بدا أنها تجيد كل شيء بمصاحبة جبار بالطبل هذه المرة، ولقد عرفت أنها فضلاً عن إدارتها للعمل وتمثيلها وعزفها رسامة ماهرة للكتب، والجمعية الصغيرة هذه التابعة لنشاط الإقليم كانت تتسع لعدد لا يقل عن ثمانين من الحضور، والعجيب أنه بعد الليلة الفنية الروائية الشعرية الموسيقية هذه قامت إيمانويل بدعوة الجمهور إلى العشاء على شرف الكاتبين

العربيين فى مطعم تركى كبير مفروش على الطريقة العثمانية به «الشيشة» الضخمة ذات المباسم المتعددة والنحم الحلال، وكان اسم النادل ميميد فذكرنى بروايات ياشار كمال عن ميميد الناحل وميميد الصقر ولقد أدهشنى تلك الليلة حديثى مع الفتيات المغربيات والجزائريات فهن أقرب إلى المحجبات، لا يأكلن إلا اللحم الحلال، فى محاولة لمقاومة هذا المجتمع الغربى المفتوح، ويبدون لى قادرات على المقاومة، والحقيقة أن المجتمع الفرنسى فى النهاية مجتمع مخيف بانفتاحه اللانهائى. وهذه الطريقة تبدو مهمة للمغتربين على الأقل للتماسك أمام طوفان الحضارة المادية، ولكن دهشتى البالغة كانت من الراقصة الجزائرية التى اسمها ليلى. كانت شابة صغيرة وجميلة وسألتنى عن رغبتها للحضور إلى مصر وهل من الممكن أن تجد عملاً. قلت لها طبعًا، الراقصات بالذات يجدن عملاً بسهولة، وضحكت وقلت لها أن رقصك مميز بالسرعة وعدم الخلاعة وقد يكون هذا جديدًا فى السوق فبدت سعيدة ثم قالت لى إنها تريد أن تعمل فى مكان نظيف يعطيها الفرصة لدراسة علوم القرآن فى الوقت نفسه. كانت تحدثنى بالفرنسية وتحاول أن تعربها من قدرتى على الفهم فلقد أخبرتهم أن فرنسيتى ضعيفة. والعجيب أن كل المغاربة والجزائريين، الذين قابلتهم تلك الليلة من طلبة جامعة بوردو أو الفرقة الفنية لا يعرفون من العربية كلمة

واحدة وإن كانوا يفهمونها في بعض الأحيان فلت لليلي أن تعيد ما تقوله فقالته.

سكت قليلاً وقلت لها إذا رقصت في مصر فلا أظن أن أحدًا ممن ستقابلينهم سيعطيك الفرصة لدراسة علوم القرآن. عليك إذًا أن تأتي إلى مصر وتعملي أي عمل آخر. فسكتت ولم تتكلم بقية الليل.

في باريس

كان لدي الوقت أن أمضي يومين في باريس أقابل فيها بعض الأصدقاء. التقيت بالكاتبة والشاعرة والمخرجة المصرية (صفاء فتحي) التي تعيش منذ زمن في باريس وتقوم الآن بإخراج فيلم تسجيلي عن (جاك دريدا) المفكر المعروف ومؤسس التفكيكية في النقد الأدبي. والتقيت بفرنسوا زبال رئيس تحرير مجلة قنطرة التي تصدر بالفرنسية في معهد العالم العربي، وهي مجلة فصلية لكنها نافذة ممتازة للفرنسيين على الثقافة العربية، ويديرها بموضوعية ونبل حقيقي فرانسوا زبال، ويكاد يقسمها بالقسط بين الدول، والكُتّاب العرب وبلادها من مشرقها.. والتقيت طبعًا بفاروق مردم بك مستشار المعهد ومسئول نشر الأدب العربي بدار آكت سود أكبر دور النشر الفرنسية المهتمة بالأدب العربي وترجمته وتحدثنا كالمعتاد عن قلة الدعم العربي لهذا النشاط المهم وعن ضرورة دعم أحد من هذا العالم العربي لدور نشر أخرى تساعد على نشر وترجمة الأدب

العربي؛ لأن اكت سود وحدها لا تستطيع أن تستجيب لهذا الإنتاج العربي الغزير وخاصة في الرواية، وكعادتي حين اذهب إلى باريس أمضي الوقت بعد الظهر في مشاهدة الأفلام في (السيتي سيتيه) بالهال، وهي أكبر مركز للسينما في باريس حيث توجد اكثر من عشرين قاعة عرض منها أثنتا عشرة قاعة في طابق واحد، وحولها المطاعم والمشارب التي تقدم لك مشاهد من الأفلام المعروضة وقت انتظارك للدخول، والهال هو سوبر ماركت عصري، اشبه بمدينة كاملة مكوناً من عدة طوابق تحت الأرض وفوق الأرض، ويشغل مساحة جبارة ويمر به شريط للمترو فهو معرض لكل فنون وبضاعة فرنسا في كل شيء ومن كل صنف وبكل الأسعار المتاحة وقريبًا منه مركز بومبيدو للثقافة والفنون فهي منطقة مشغولة بالحركة والجمال لاينافسها إلا (السان ميشيل) أو الحي اللاتيني الذي هو أقرب لحي الحسين عندنا في رأي صديقنا عاصم حنفي والسان ميشيل أو الحي اللاتيني هو المكان الذي اتسكع فيه دائمًا حين لا يكون هناك سينما أو مواعيد مع أحد، أشتري منه بعض الكتب والصور القديمة وأعرج على السان جيرمان لشراء ما يلزم من هدايا هي عادة فاخرة ومتوسطة السعر قياسًا على أسعار فرنسا. هذه المرة لم يكن لدي وقت لمشاهدة غير فيلم واحد هو عين الثعبان لبريان دي بالما مخرجًا ونيكولاس كيج ممثلاً وهو فيلم إثارة أمريكي فيه يتورط حارس وزير الدفاع

الأمريكى فى مؤامرة لقتله مع مافيا شركات تصنيع وتوريد الصواريخ، إنه فيلم أمريكى نموذجى للإثارة كان يمكن أن يقوم به أى مخرج آخر وليس بالضرورة مخرجًا كبيرًا كذى بالماال.. لقد كان ضيق الوقت وراء امتناعي عن الاتصال بعدد من الكتاب العرب الذين احبهم ويعيشون فى باريس، وبسبب ان هذا العام هو عام لبنان، فى المعهد التقيت مصادفة مع الشاعر (عباس بيضون) فى معهد العالم العربى وعرفت أن عددًا لا بأس به من كتاب لبنان يتقاطرون على باريس، حسن داوود والياس خورى وعبده وازن وغيرهم واكتفيت بلقاء جميل مع الكاتب التونسى الذى يعيش ويعمل فى باريس، الحبيب السالمى الذى لا نعرفه فى مصر كثيرًا وهو جدير بأن نعرفه كثيرًا جدًا فهو صاحب روايات جميلة منها (جبل العنز) وصورة بدوى ميت و(متاهة الرمل) أمضينا أكثر من ساعة بمقهى قريب من ميدان الجمهورية، وفى اليوم التالي اخذت طريقى إلى القاهرة متعجلاً كالعادة حين أبتعد عنها رغم كل ما نعانيه فيها، وفى المطار وجدت موظفة (الإير فرانس) تبتسم لى وتعتذر عن عدم ركوبى الطائرة فى الموعد المحدد، أنا وعدد آخر من الركاب وذلك بسبب زيادة طارئة فى الأوزان التى صعدت إلى الطائرة. طيب وماذا سنفعل؟ قالت إننا سنأخذ طائرة أخرى إلى روما و من روما نركب الطائرة إلى القاهرة، وهذا يعنى أننا سنصل متأخرين ثلاث ساعات بعد الموعد الأصلى الذى كنا سنصل

فيه لو ركبنا طائرة الإيرفرانس مباشرة إلى مصر. ثم قالت لي لكننا سنعوضك بمبلغ ألفين وخمسمائة فرنك عن هذا التأخير... أصابتني الذهول للحظات، أولاً لأنني كنت أنفقت كل ما معي في فرنسا واحتفظت فقط بمائتي فرنك لزوم التاكسي في القاهرة وأي شيء ممكن أن أشربه أو آكله في مطار شارل ديجول، وثانيًا لأنني لم أتعود على هذا التعويض حين تتأخر الطائرات العربية، ولما وجدتني صامتًا قالت هل يضايقك أن تعود إلى البيت متأخرًا اليوم عن الموعد؟ ابتسمت وقلت لها هل تعرفين ماذا أعمل؟ قالت لا. قلت كاتبًا ومؤلفًا للقصة والرواية؟ وهذا يعني أنني لم أصل أبدًا في حياتي إلى البيت في الموعد ولا مبكرًا، دائمًا ومنذ أكثر من ربع قرن أعود متأخرًا فلن يضيرني أن أضيف إلى ذلك الزمن يومًا آخر. فأخذتني من يدي إلى المكتب وسلمتني الألفين وخمسمائة فرنك وهي في غاية السعادة بهذا الكاتب الذي لا يعود في موعده، فأخذت طريقي إلى محلات السوق الحرة الفرنسية وخلفي المصريون الذين سيتأخرون معي.

الرحلة السادسة
ساحل مريوط

مرايا المدن الصحراوية

هل أستطيع الإمساك حقًا بالحكايات القديمة؟ لكل الأطفال حكايات الجن والعفاريت واللصوص والثعالب في ليالي الغضب. وحكايات البلبل والأميرة والشاطر حسن وعقلة الأصبع في ليالي الرضا العائلي. نسيت حكايات جدتي عن الريف، نسيت حكايات أمي في ليالي الرضا أو الغضب، حكايات أبي تسللت في الروح واستقرت، ولا بد أيضًا أنها أحاطتني بسياج من عجائبها، إنها حكايات الحرب العالمية الثانية، بصفة عامة، وحكايات العلمين بوجه خاص.

العلمين؟!.. من منا لم يسمع بهذا الاسم؟.. إنه معركة مصر وإسهامها العظيم في الحرب العالمية الثانية. الأرض حاربت مع الحلفاء، ذلك عرفته فيما بعد، فهي ليست معركة مصر باعتبار وقوعها فيها كما قصد تشرشل.

رأيت العلمين، لم تكن أكثر مما قال أبي. محطة سكة حديد صغيرة لم يكن القطار يقف عندها طويلاً، جاءت جيوش الدنيا لتقف حولها وتقتتل. ما تبقى من القتال الآن هو المقابر الشهيرة لجنود الكومنولث وجنود المحور أيضًا وجنود فرنسا الحرة والفيلق اليوناني، تلك التي يأتيها الأبناء والأحفاد والأقارب طوال العام من كل الدنيا لزيارة مفقوديهم. وقامت حول المحطة بضعة بيوت صغيرة من حجر يعيش فيها قليل من البدو والذين تركوا خيام الوبر.

(قال لي أبي إنه انتقل للعمل في محطة سكة حديد العلمين في نفس الأسبوع الذي نشرت فيه الصحف نبأ تسلم (روميل) قيادة الفيلق الإفريقي من جرازياني الإيطالي الذي تعرض لهزائم متتابعة من البريطانيين. وإنه، أبي، فكر في إمكان مقابلة روميل وجهًا لوجه. لقد أحس أن روميل سيأتي إلى العلمين).

قلت:

- لماذا لا تذهب إلى الطبيب يستأصل لك هذه الندبة التي في أصبعك؟

تأملني مليًا وقال:

- ولماذا الطبيب، يمكن أن تفعلها أنت.

كنت في الثانية عشرة من عمري، وقال:

- إنها ميتة. هات «الموسى».

أحضرت له «الموسى» وأنا أفكر لماذا ترك هذه الشظية التي سكنت أعلى السبابة بعد انفجار أحد الألغام الصغيرة فيه بعد الحرب كل هذا الوقت، ولماذا وافق على استئصالها اليوم؟

مد لي أصبعه وطلب مني استئصال اللحم الزائد بالموسى فجلت. أمسك بالموسى وشق اللحم المتجمع فوق الأصبع بلا أي ألم وأخرج منه شظية سوداء في حجم خرزة صغيرة قدمها لي فأمسكت بها وشعرت بصلابتها وخشونتها بينما استأصل هو اللحم الزائد ثم لف أصبعه بقطعة شاش.

(كان قد حدثني كثيرًا عن ذلك اللغم الذي انفجر فيه فأصاب فخذيه وبطنه بثقوب عديدة وكيف داواه البدو بطريقة عجيبة حيث كان طبيبهم يأتي بدهن الغنم ثم يذيبه على النار ثم يسكبه في الثقوب التي ملأت ساقي وبطن أبي حتى التأمت.

لم يتركني ألقي بالشظية، ولم يتخلص هو منها. وضعها في كوب نظيف ووضعه على رف بالحمام ومع الوقت اختفت ولم يسأل أحد عنها.

امتلأت منذ الخامسة من عمري بالحكايات الغريبة عن الحرب التي لم أرها وكبرت أبحث عن (العلمين)، وجدتها أكبر من حكايات أبي عن السائق الهندي والفرقة الإسكتلندية ومشاهد القتل والهروب في الصحراء ومشاهد البدو والحيوانات التي تمر على غير هدى تحت الطائرات وأمام القذائف، ولغات

ابناء المستعمرات التي لم يكن يفهم منها شيئا وجروحه هو وإصاباته. أحسست أنى متنور لرؤية العلمين ومعرفتها لكنى وأنا أفعل ذلك تذكرت أنى قطعت مع أبى رحلات كثيرة على طول ساحل مريوط، والعلمين مدينة صغيرة على هذا الساحل تكبر الآن بسرعة مدهشة، الساحل كله يتغير معها، ليس مجرد مكان تقتاله القرى السياحية لكنه تاريخ أيضًا وإن لم يدرك ذلك المستعمرون.

جريان في التاريخ

ساحل مريوط، أو ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديمًا، هو مدخل مصر الوحيد من ناحية الغرب - بالطبع قبل ظهور الطائرات والصواريخ - منه جاء الحاكم الليبي (شيشنق الأول) لغزو مصر عام ٩٤٥ ق.م، وأسس الأسرة الثانية والعشرين. وعلى نفس الساحل خرج (إبريس الأول) رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية عام ٥٨٨ ق. م قاصداً (قورينا) في برقة بليبيا لتخليصها من حكم الإغريق لكن غزوته لم تنجح.

وعلى هذا الساحل نفسه مشى الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م مخلفًا الإسكندرية التي لم تتم خلفه لزيارة معبد آمون في سيوة، وأكمل بطليموس الأول الإسكندرية، ثم قطع الساحل أيضًا إلى قورينا في ليبيا، وضمها إلى مصر.

حـركـة الذهـاب والإياب لم تنقطع على السـاحل، وبعد هزيمـة كليوباترا وابتداء العصـر الرومانى، صار الساحل أكبر مكان لزراعة الغلال بعد وادي النيل. ثم تدهور وانقطعت الحـركـة عليـه أو كـادت حـتى فـتح العرب مصـر، وخرجت عليه الجيوش غازية إفريقيا والمغرب. لقد كان ذلك الوقت، رغم التدهور، حدائق متصلة من الإسكندرية إلى برقة. ذلك مذكور في كتب المؤرخين القدامى.

على أن من أشهـر من مـروا على الساحل، القبائل العربية المهاجرة من نجد والحجاز. قبائل بني سليم وبنى هلال الشهيرة. ثم الجيوش الفاطمية التى جاءت إلى مصـر من أقصى المغـرب العربي. هو إذًا طريق ذهاب وإياب تاريخى، وإن ترهل الوقت بين كل خـروج ودخـول، وسـيكون طريق ذهـاب وإياب للجـيـوش أثناءالحرب الثـانيـة، لكنه ذهاب وإياب سـريع دائمًا. لقد تقـدمت الحروب ولم يعد الجنود يتحـركون على الخـيل والأقـدام لكن من هم أولئك الذين سكنوا الساحل كل هذا الوقت؟

في البـداية سكنـه اليونانيون والبطالمة وقليل من المصـريين العـاملين فى الزراعـة أو الخـمـور أو صناعات الزجاج والفخار. ثم ازداد المصريون بعد أن دخلت المسـيـحـيـة مـصـر وازداد اضطهـاد الرومـان للشعب فراح يفر إلى الصحراء الغربية. كتب التاريخ

تذكر دائمًا الفرار إلى الجنوب وقليلاً ما ذكرت الفرار إلى الساحل الشمالي.

بعد الفتح العربي تحركت عليه القبائل ذاهبة آيبة في الحرب والسلم. يمكن طبعًا تتبع حركة القبائل في مصر في كتب مثل (كتاب العبر) لابن خلدون أو (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) للقلقشندي، أو (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم أو كتب عصرية مثل (قبائل العرب في مصر) لأحمد لطفي السيد أو غيرها، لكنا نصل بسرعة إلى ما انتهى إليه الأمر من استقرار مجموعتين من القبائل هي الموجودة الآن على طول هذا الساحل، وداخله أيضًا في ولاية برقة الليبية. المجموعة الأولى هي (عرب السعادي - المنسوبون إلى أمهم) (سعدى) من قبيلة (زناتة) بل هي بنت شيخ القبيلة. وتضم عرب السعادي قبائل (على الأبيض) و(على الأحمر) و(السننة)، لكن يطلق عليها جميعًا أولاد على. أما المجموعة الثانية من القبائل فهي قبائل (عرب المرابطين) التي تشمل قبائل (الجميعات) و(القواييص) و(السمالوس) ولقد سموا بالمرابطين بسبب عملهم حيث كانوا يرابطون على نقط الحراسة بينما يترك القتال لعرب السعادي، الآن قويت بعض قبائل المرابطين لكنهم، جميعًا بوجه عام، مندمجون من ناحية النسب في قبائل السعادي، حتى أنهم ينسبون أنفسهم أحيانًا إلى أولاد على أيضًا.

للمدن على هذا الساحل لون وطعم ورائحة. العلمين أصغر المدن. محطة سكة حديد فقيرة، وبضع خيام للبدو، قسمت زمن حرب كونية إلى نصفين.. في النصف الأول انتصرت قوات المحور في كل معركة، وفي النصف الثاني لم تنهزم قوات الحلفاء. ولخصت البلدة الصغيرة حرب الصحراء في معركة، وصار من يذكر العلمين في العالم يعني ضمنًا مصر. أما اللون فهو لون التراب. لماذا حقًا ليس لون الرمال؟ دائمًا أرى الناس والبيوت في لون التراب.

(فضلا عن حكاياته كان أبي يأخذني كثيرًا في سفراته عبر الصحراء ورأيت تقريبًا كل المدن حتى مرسى مطروح).

وجوه البدو مكشوفة. أولاد علي قبائل غير ملثمة، ليسوا كالطوارق مثلاً في الصحراء العربية الكبرى. وطعم المدن هو طعم الخبز المعجون بالوبر، وبر الجمال والأغنام والماعز والفراش وندرة الماء. تعرف الطعم من الرائحة ولا تجفل ولا تتململ. لكن هل هي مدن حقًا تلك المطروحة على الساحل الطويل؟

بمقياس الصحراء هي مدن، بدأت قديمًا كمراكز للأسواق، أو الانتجاع. كانت البضائع دائمًا الزيتون والتمر وزيت الزيتون واللحم والأغنام والتين السلطاني والصبار والحنظل والشيح والشعير والأرانب والقنافذ والصقور والثعابين والحكايات.

أول المدن مدينة (العامرية) على بعد عشرين كيلو مترًا غرب الإسكندرية، وإلى الجنوب الغربي من بحيرة مريوط الممتدة وراء ظهر الإسكندرية، ويمر أمامها الخط الحديدي الصاعد غربًا إلى السلوم.

(كان أهم قطار يقطع الصحراء هو قطار المياه، وكان يمر على البلاد مرة كل أسبوع ومن لم يستطع الحصول على حاجته من الماء تلك المرة كان يمكن أن يموت ، لكن البدو الذين يسكنون عادة بعيدًا عن محطات القطارات، كانوا لا ينتظرونه. لا يشربون إلا من مياه الآبار).

والعامرية عرفت أيام محمد على باسم (كنج عثمان) و(كنج عثمان) نفسه كان أمير الضيافة عند الوالى. وفي عهد سعيد حملت اسم (برتجي مريوط) أى أول مريوط. هذا يفسر اسم البلدة الصغيرة (كنجي مريوط) أى الثانية في مريوط، وهي ضاحية تشتهر بطواحين الهواء، هواؤها جاف طوال العام. فهي مشتى ومصيف معًا ومنتجع صحي. إنها تقع في نفس زمام العامرية، وإداريًا خاضعة لها، لكنها تبدو كأنما اختصها الله بهواء ساحر عجيب يتجمع في سقف الدنيا وينزل إليها طريًا منعشًا فتدور الطواحين تصعد بالماء النقي المحبوس منذ ملايين السنين تحت الصخور ليروي مزارع التين واللوز والرمان والعنب وذكريات الزائرين. زرت كنج مريوط أول مرة في صباي الباكر مع أبي، الذي دفعه عمله

بالسكة الحديد إلى كل هذا السفر بالصحراء، ما زلت أشعر بالارتواء الذى شملني به الفضاء الندى ذو الريح الحنون الجافة. هناك مدن تدخلها فتنسى المدن الأخرى، تتلخص حياتك فى إحساس بالراحة والأمان، تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان فى المكان ولا زمان فى الزمن.

لكن العامرية على العكس من ضاحيتها الجميلة، مدينة طاردة، هى سوق كبير يلتقى فيه أبناء الصحراء بأبناء الدلتا القادمين عبر الإسكندرية ومحافظة البحيرة. لكنها فى كل وقت تبدو مدينة (بزرميط) بلا هوية يتكاثر عليها التراب من كل جانب. ولا علاقة لاسمها بقرية (ماريا) اليونانية القديمة التى اكتشفت بقاياها منذ أعوام قرب الساحل، ربما حملت العامرية اسمها من مرور قبائل (ربيعة بن عامر) و(هلال بن عامر) عليها فى طريقها إلى المغرب. ثم أهمل الاسم حتى قفز إلى الأذهان فى عهد الخديو عباس حلمى. وربما يكون اسمها من تدخل الدولة فى حركة العمران، وهذا هو الأرجح. المهم أنه لا علاقة بين الاسم وقرية ماريا التى ارتبط اسمها بالاسكندرية. لقد كان أهم ما اكتشف بقرية ماريا هو معاصر النبيذ ومخازن الخمور. ربما لهذا غنى السكندريون أغنيتهم القديمة. (إسكندرية ماريا وترابها زعفران).

نبتعد عن العامرية وندخل فى الصحراء أكثر. الزراعة الكثيفة على الطرق الصحراوية بدأت تغير

من طبيعة القاهرية، تزيدها اختلاطا. نحتاج إذا إلى وقت حتى تتجلى مدينة ذات هوية.

ثاني المدن، التى بدأت صغيرة جدًا، وتتسع الآن. مدينة (برج العرب) على بعد خمسين كيلومترًا من الإسكندرية اختار (الميجور براملي) مفتش البوليس بمحافظة الصحراء الغربية سنة ١٩١٨، ربوة عالية وأقام فوقها قصرًا فخمًا جمع فيه ألوانًا من التحف وأحاطه بحديقة جميلة قطفت أنا بعض زهور اللوز منها. مخالفًا بذلك تعليمات أبي بأن لا أقترب من الحديقة التى يحرسها الحرس الجمهورى.

- لماذا أنت هنا؟

قال لى جندى الحرس الذى رأيته واقفًا أمامي فجأة.

- أنا لا أسرق اللوز.

ابتسم. كان اللوز فى يدى. قلت.

- أحببت أن أرى جمال عبد الناصر

- الرئيس في القاهرة، يأتي إلى هنا قليلاً.

وسكت وراح يتطلع إلى مُكبا. لا بد أنه كان مندهشً من شجاعتي. سألته.

- هل يمكن أن تأخذني معك أتفرج على القصر؟

ولم يوافق، قال لي أن أكون حريصًا في المرات القادمة وأن ألا أقترب من الحديقة. في عودتي رأيت شابًا بدويًا يغني بصوت عالٍ وحده ويمشي مسرعًا بين شريطي السكة الحديد، لا بد أنه على دراية بموعد القطارات حتى يمشي مطمئنًا هكذا. الوقت صيف والحرارة قائظة لكننا نقترب من المغرب. نسمة تتأرجح في الفضاء تنذر بالطراوة!

لقد انتهى (الميجور براملي) من إقامة القصر والبلدة الصغيرة تحت الربوة عام ١٩٢٤ وأقام حولها سورًا عاليًا جعل له بابين يمر بينهما الطريق المعبد الذي يربط الإسكندرية بالصحراء - لم يعد لهذا الطريق القديم وجود الآن بعد إنشاء شبكة هائلة من الطرق - وزين براملي قصره بالأعمدة والتحف المرمرية التي نقلها من منطقة أبي مينا، حيث تقع كنيسة (بومنا) أو (أبو مينا) التي أقامها عام ٤٠٠م الإمبراطور أركاديوس على قبر القديس (سانت ميناس) الذي قتله أتباع دقلديانوس عام ٢٦٦م عندما لاذ بالصحراء من الاضطهاد..

لماذا أطيل هكذا الحديث عن برج العرب؟ ربما لتكرار زيارتها في صباي مع أبي، تمنيت مرة أن يأتي شهر رمضان في الشتاء، كنت أرى أبي متعبًا من الصيام، كان يعيش معه زميل اسمه إبراهيم، وكان مسيحيًا. لكنه كان يصوم مع أبي طوال النهار ثم يشاركه طعام الإفطار.

(لماذا تصوم مع أبي يا عم دميان؟

(لأنك في الصحراء لا تستطيع أن تأكل وحدك. تحتاج إلى صاحب دائمًا فكيف يكون معي صاحب وآكل أنا وحدي بالنهار ويأكل هو وحده في المساء؟

ولم يكن الرجل اسمه دميان، لكني أعطيته هذا الاسم حيث كتبت عنهما بعد أكثر من ربع قرن، قصة قصيرة بعنوان (كان يعرف أسماء البلاد) ثم رواية لا أحد ينام في الإسكندرية...

في مساء أحد أيام رمضان ذلك العام، كان أواخر الخمسينيات أو الستينيات، وكان متعذرًا اصطحاب الزوجات في ذلك الخلاء، في ذلك المساء هبط علينا شخص ثالث عابر سبيل طلب الطعام فأكل وشرب وزوده أبي وزميله بالطعام والماء والمال أيضًا.

قال العابر ذاك إنه قادم من المحلة الكبرى ذاهب إلى ليبيا مشيًا على الأقدام هاربًا من الفقر والحاجة..

(منذ ذلك الوقت لم أقابل أحدًا من المحلة الكبرى إلا وتخيلته هاربًا من الفقر والحاجة). (طفشان) من البلاد.

في برج العرب هذه رأيت القنافذ بالليل ملتصقة بقضبان السكة الحديد، واصطدتها وتعلمت أن أمسكها من الأمام وأعود بكفي إلى الخلف فلا تستطيع أن تشرع أشواكها وسألت أبي لماذا يغني

ذلك البدوي بصوت مرتفع وهو يمضي مسرعًا في الخلاء؟

أجابني: إنه يفعل ذلك من أثر الجوع، وكلما ازداد جوعه ازداد صوت الغناء إذًا هو يتبلغ بالغناء، ما أجمله من طعام. قلت لنفسي ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة. أي وأنا أكتب إليك الآن. تغيرت برج العرب، وصارت بلدتين القديمة والجديدة، وأحاطتها الزراعة وامتلأت طرقاتها بالمركبات الزراعية وقاطعات الأحجار من الجبال. ولا بد للوصول إلى العلمين التي لم نصل إليها بعد من المرور على مدينة (الحمام) ثالث المدن أهمية في الصحراء الغربية بعد العامرية ومرسى مطروح إنها تقع على بعد خمسة وستين كيلومترًا من الإسكندرية، ولقد قامت على أنقاض مدينة (ماتو كامينوس) اليونانية القديمة، تقوم هذه المدينة كالعامرية قديمًا، حول سوق شهير يأتي إليه أبناء ليبيا من الغرب، ويقابلهم أبناء الدلتا من الشرق، فيها مسجد قديم يقال إن الذي بناه هو (زياد بن الأغلب) في طريقه لفتح (افريقية). يعيش فيها بعض المغاربة منذ زمن بعيد. في الحمام تشعر برائحة المدن الصحراوية الحقيقية. يخيل إليك دائمًا أن كل ما تراه سيتحول إلى سراب. حركة الناس حولك سريعة في المشي والكلام، في البيع والشراء. من الصعب الاحتفاظ بوجه في الذاكرة إنها مدينة لا تستطيع أن تقف بها إلا متحفزًا إلى المسير. خلقت

لنكون لتبادل المنفعة ثم العودة بسرعة إلى الديار، والخروج منها يعني الدخول بسرعة إلى العلمين.

وفي العلمين كنت أتلقى هدايا كثيرة من الجنود الإنجليز والهنود والأفريكان كان لدي دائمًا كميات كبيرة من الشاي والعدس والسكر والدخان وجوز الهند والشيكولاتة والولاعات - القداحات - وعلب الدخان المعدنية المذهبة وأقلام الحبر والكوبيا والجوارب وكنت أرفض الخمور وأعود إلى القرية كل شهر مرة محملاً بهذا كله فتنتظرني القرية كلها لأوزعه عليها بالمجان. كانت أمك قد تركت الإسكندرية مع الذين هاجروا منها إلى قريتنا جوار كفر الزيات، وذات ليلة طاردتنا الغارات الألمانية والإيطالية ونحن في القطار، ورغم ابتعادنا عن الإسكندرية لم يتزاح عني الإحساس بالرعب، وعند محطة كفر الزيات خيل لي أن القطار يقف بالرصيف، والحقيقة انه كان يتجاوز المحطة بسرعة مجنونة. ما كدت أضع قدمي خارج الباب حتى طرت في الفضاء لأسقط بعد الرصيف فوق سقف خشبي لحجرة محفورة بالأرض مما ساعد على بقائي حيًا.. فقط ضاع ماكنت أحمله، وحملني عمال المحطة إلى مستشفى طنطا لأمضي شهرين في الجبس، ثم عدت إلى العلمين غير مصدق أني نجوت، لكني سأترك العلمين لأعود إليها على مهل وبتفصيل. سأقفز إلى بلدة (سيدي عبد الرحمن) المصيف الجميل ذي الرمال البيضاء الذي حمل اسمه من مزار لهذا الولي

البدوي الذي يحمل اسم عبد الرحمن أبو بطيخة، والبطيخة هي التي تكلمت وهي التي أشارت ببناء الضريح والمسجد والمدينة فيما بعد.. لقد كان عبد الرحمن يمشي مع صديق له يعمل حلاقًا باغتته بالقول بأنه يمكن أن يذبحه بسكينة في ذاك الخلاء ولا يعرف أحد.. وبالفعل قام بذبحه وتركه ومضى، بعد عام عاد الحلاق من نفس الطريق ليقف مكان القتل فيرى شجرة بطيخ في الصحراء؟ إن الحكاية الشعبية الفاتنة تكمل عناصرها بإتقان، يحمل الشرير البطيخة ويجدها كبيرة فيهديها إلى شيخ القبيلة الذي ما أن يشقها بالسكين حتى تقطر الدم. يحاول أن يشقها مرة أخرى فتقطر الدم، يضع السكين جانبًا ويسأله. يطلب الشرير الأمان قبل أن يحكي له القصة، يعطيه شيخ القبيلة الأمان ويعرف القصة يشق البطيخة نصفين ليجد رأس عبد الرحمن بينهما ذبيحًا يقطر الدم ويتكلم طالبًا بناء ضريح فيبنون له ضريحًا ومسجدًا يزوره البدو طوال العام، لكن بلدة سيدي عبد الرحمن هذه كانت منذ زمن بعيد مصيفًا جميلاً، بل من أجمل مصايف ساحل مريوط ومن أشهرها، ولم تكن في حاجة إلى غزو القرى السياحية الذي يحدث الآن ليعرفها الناس، إنها مصيف قديم لا ينافسه إلا مدينة (برتينيوم) القديمة، أو مرسى مطروح الحالية.

بعد العلمين عدة مدن مهملة. أشهرها (الضبعة) بلدة الشمس والفراغ، يصل إليها الناس متعبين دائمًا فيجلسون بلا حركة ويبيعون ويشترون بلا هرج. بالكاد يتكلم الناس إذا سألتهم.. وبعد الضبعة مدينة (فوكة) التي حازت بعض الشهرة في الحرب العالمية الثانية قبل معركة العلمين، إنها منطقة منخفض، تسمى أحياناً بيئر فوكة لا يمكن إلحاقها بالمدن الصحراوية لقلة أعداد سكانها إلى حد الندرة..

(لا أحد يصدق أننا جرينا من فوكة إلى العلمين بالليل وسط الظلام فوصلنا مع الصباح كانت ليلة مرعبة جاءت فيها الأخبار بانطلاق قوات روميل طاردة القوات الإنجليزية أمامها، وسبقت الطائرات الألمانية والإيطالية القوات، وكان في فوكة احتياطي الجيش البريطاني من المدرعات والجنود فظلت الطائرات تضرب المنطقة طوال الليل. لقد جريت على قدمي، وسبقت الجنود بمركباتهم التي كانت تحترق ويموتون، ولم أتوقف عن الجري إلا في العلمين. جعلنا الرعب نجري أكثر من خمسين كيلو مترًا).

كلما مررت على فوكة في طريقي إلى مرسى مطروح لا أصدق أنه يمكن لأحد أن يجري من فوكة إلى العلمين، لكن لا أحد يعترف بهذا الضعف بسهولة. أي رعب كان.

ومرسى مطروح هى ميناء مصر القديم الذى كانت السفن تخرج منه إلى اليونان وتعود إليه ومنها أدارت كليوباترا معاركها مع روما، ومن الميناء أقلعت السفن لتلتقى باكتافيوس فى (أكتيوم) لتنهزم وتعود سابقة انطونيوس زوجها وحبيبها. وفى مرسى مطروح شاطئ صغير يحمل اسم كليوباترا، كما يوجد شاطئ نصف دائرى صغير يحمل اسم روميل، وفى الشاطئ حمام كليوباترا الشهير الذى كانت تقضى فيها أوقات متعتها مع أنطونيوس.

فى قورينا أيضًا بليبيا يوجد بأحد الشواطئ حمام، أى حوض محاط بالصخور الطبيعية، يقال له حمام كليوباترا أيضًا، لكنه يختلف عن الحمام المصرى بأنه مكشوف وليس مسقوفًا بالصخور الطبيعية. كما أنه ينسب إلى كليوباترا الثامنة إبنه كليوباترا السابعة المصرية الشهيرة - على أى حال فى مطروح أيضًا وفى شاطئ روميل سرداب تحت صخور الشاطئ يعد بمثابة متحف للقائد العجيب روميل به بالطو وحذاء وأشياء لا قيمة كبيرة لها وبعض صور لكنه دائمًا مثير للرغبة والاستطلاع.

مرسى مطروح فى التاريخ إذًا هى بلدة الحب والموت. لقد شهدت قصة غرام كليوباترا ونهايتها، والحب فى بلادنا، مصر، عادة يقترن بالموت، منذ إيزيس وأوزوريس حتى حسن ونعيمة. والماء يحمل العاشق القتيل دائمًا، حمل أوزوريس إلى بيلوس

بليتان، ثم عاد وحمل النيل أعضاءه المقطعة. وحمل النيل جثة (حسن) بين القرى، والذين عاشوا فى القرى المصرية يعرفون كم يحمل إليهم النيل كل عام من جثث العشاق. وفى مرسى مطروح كدت أقتل، لم أكن عاشقًا لامرأة من هناك ولا فتاة. كان صديق لى محب دائمًا فوق العادة قد وقع فى غرام فتاة قاهرية تعمل مدرِّسة هناك. كان هو محبًا فوق العادة وكنت أنا مجنونًا فوق العادة وحين طلب منى أن أسافر إلى مرسى مطروح معه لنقابلها وافقت. كنا نعرف أنها تعمل فى المدينة لكن لا نعرف اسم المدرسة التى تعمل بها، وكنا نعرف أنها من القاهرة لكن لا نعرف هل لها أقارب تعيش بينهم هناك أم فى بيت للمغتربات. اندهشت جدًا لعدم توافر هذه المعلومات لدى صديقى العاشق، وفكرنا أن أفضل طريقة للعثور عليها أن يعرف الناس فى المدينة بوصولنا. من نحن حتى يعرفنا الناس؟ كان العام عام ١٩٧٥ وكان الطريق بين مصر وليبيا قد أغلق بسبب الخلافات السياسية، وتعرضت التجارة فى مرسى مطروح إلى كساد وبوار. إذًا نحن صحفيان جئنا نتقصى أحوال المدينة. قابلنا محافظ المدينة ذلك الوقت، الفريق سعد مأمون، أحد قيادات حرب أكتوبر. وقابلنا سكرتير عام المحافظة، وأمين الاتحاد الاشتراكى وأمين الشباب، وأمين تنظيم المرأة، ومسئول التعليم، والتقينا بالناس فى الشوارع، وبالمدرسين والمدرسات فى المدارس، وبمديرى الأمن. وكتبنا مئات من الصفحات التى لن ننشرها أبدًا. واكتشفنا حياة سرية فيها تهريب

ومخدرات ودعارة ورقيق أبيض، وتوجهنا أن نلتقي بالمحبوبة، كانت ضمن هواة التمثيل الذين قابلناهم في قصر الثقافة هناك. رتب صديقي معها موعداً يقابلها فيه في الغد. وفي الليل جاءنا في الفندق أحد الشباب يطلب منا مغادرة المدينة مع أول ضوء.

- لماذا؟

لأن البلدة كلها تعرف أنكما ليسا صحفيين، وهناك من يريد قتلكما باعتباركما جاسوسين ليبيين.

- وما الذي جعلك تتطوع وتقول لنا ذلك.

- نظر إليّ وقال:

- أنا أعرفك جيداً، وأعرف أنك كاتب قصة من الإسكندرية.

لم أكن نشرت أكثر من ثلاث أو أربع قصص. هو يعرفني حقاً وهو صادق. وتركنا المدينة مع أول ضوء، وتركنا بالفندق أوراقنا المكتوبة وغير المكتوبة، ولما ابتعدنا بسيارة الأجرة عن مرسى مطروح انطلقنا نضحك بشراسة. لقد نجونا من موت أكيد ولم يعد صديقي إلى محبوبته. عرف أنها تزوجته.

في طريق عودتنا قال لي.

- ما رأيك لو توقفنا قليلاً عند العلمين؟

أيقظ فيّ الماضي الجميل، كان أبي قد مات. وعني تعدد رحلاته التي أخذني فيها معه إلى

الصحراء لم يعد مرة واحدة إلى العلمين، كانت تلك إذاً أول مرة أزور فيها هذا البلد الغامض، وعندما وقفت أمام القبور، ودرست طبيعة المكان، أدركت أن هذه المنطقة أعدتها الطبيعة، وأعدها الله، لتكون يوماً في القرن العشرين، أرض قتل.

في العلمين الآن حركة عمران سياحي هائلة، وفي إحدى القرى السياحية الرائعة فيلا للدكتور يوسف إدريس لم يمض بها وقتاً طويلاً، يحمل الشارع الصغير بتلك القرية الجميلة اسم يوسف إدريس، لكن الشارع بلا يوسف إدريس نفسه يختلف. بل تختلف الحياة الآن بدون يوسف إدريس عنها به. ماء آسن. يرحمه الله كان هو يحرك الماء، كان طويلاً مهيباً مثل حراس الحقول. قال لي آخر مرة التقيته إن العلمين هي أجمل مكان في العالم. هل كان يقصد البحر الممتد أمام القرية السياحية، أم كان يقصد العظمة التاريخية للمكان خلف البحر وإلى الجنوب؟

العلمين فاصلة زمن الحرب

[كنت أعمل على محطة سكة حديد بالعلمين، لم تكن هناك حركة يعتد بها للركاب، قليلاً ما كان يغادر البدو نجوعهم المتفرقة بعيداً عن المحطة إلى سوق الحمام أو العامرية، كانت القطارات تقذف بالجنود. وقطارات البضائع تقذف بالدبابات والمدافع. انتقلت من العلمين إلى فوكة والضبعة مرتين كل منهما لمدة أيام. عندما بدأ روميل هجومه الكبير سبقت الجيوش

المرتدة جيوش الجمال والأغنام والماعز والغزلان أحياناً الهاربة من جحيم الصحراء إلى موت محقق. فقط تأجل قليلاً).

في المتحف الحربي بالعلمين، بقايا أسلحة قديمة، من الذخائر حتى المدافع والدبابات، وملابس الجنود وصور للقادة ونموذج لخطة المعركة وصور للخونة الذين كانوا على اتصال بالألمان، بينها صورة للراقصة حكمت فهمي صاحبة العلاقة الشهيرة بالجاسوس الألماني هانز أبلر. والتي عرفها أنور السادات، وكان يعرف علاقتها بالألمان. تقول حكمت فهمي إنها في السجن رأت فتاة بدوية مذعورة كانت قد تم إنقاذها من الموت في الصحراء بعد أن ضلت الطريق أثناء الفرار مع قبيلتها وصعدت مع قردها الصغير وجلست فوق أغصان إحدى الأشجار. لماذا حقاً وضعوا تلك الفتاة في السجن؟ سؤال كثيراً ما يقفز إلى ذهني. اكتشف البدو بالصحراء الغربية أنهم يمكن أن يثروا ثراء فاحشاً إذا باعوا أراضيهم التي تطل على ساحل مريوط للمستثمرين والمصطافين، ابتدعوا بمنطقة (العجمي) الشهيرة مع أوائل السبعينيات. الآن تركوا الساحل الشمالي كله، ساحل مريوط، من الإسكندرية حتى مرسى مطروح، لكنهم لم يتراجعوا إلى الجنوب فقط. صاروا أثرياء يركبون سيارات البيجو والمرسيدس، وبنوا الفيلات بدلاً من خيام الوبر، وأكثرهم افتتح له محلات على الطريق،

لكنهم لا يزالون لا يقبلون على العيش في القرى السياحية الجديدة أو على الشواطئ بوجه عام فلا طاقة لهم على النظر إلى كل هذا العرى للنساء والرجال.

أرض قتل الهيبة

العلمين أرض منذورة لحرب لم تتوقعها البشرية، حدثت والآن صارت جزءًا من الماضي عندما وقفت فيها مع صديقي المحب الوامق لفتاة مرسى مطروح ادركت ذلك، وادركته أكثر حين قرأت عن المعركة. مشيت إلى محطة السكة الحديد فوجدتها كما وصفها لي أبي لم تتغير: رصيف منخفض إلى الأرض، وحجرة لناظر المحطة، ومزلقان بدائي يجلس على طرفه رجل ضئيل يمسك بحبل ينتهي إلى عمود خشبي يجذبه فيسد به الطريق على المارة والسيارات وقت عبور القطار، يتركه فيرتفع العمود عن الطريق ويسمح بالمرور بطريقة بدائية انتهت من زمان؛ حيث صار بالمزلقانات الآن إنذار معروفة ورخيصة. لكن هذا هو واقع الحال. ما الذي اختلف في العلمين إذًا؟ المقابر بدلا من القتال! وحول المحطة بعض بيوت من حجر اتخذها البدو سكنًا لهم بدلاً من (الوبر)، وقيام القرى السياحية على الشاطئ. الشاطئ نفسه اقتلعت منه أشجار التين كما اقتلعت من الساحل كله من الإسكندرية حتى مرسى مطروح. في العادة لا تستطيع أن تدرس أمرًا ومعك صديق يشاركك الرؤية

أو الكلام. لذلك لم يبق في زيارتي الأولى للعلمين عام ١٩٧٥ مع صديقي في طريق عودتنا - هروبنا من مرسى مطروح غير نظام وجمال الزهور والمقابر، ولم نفكر أن بالمنطقة مقابر أيضًا لألمانيا - وإيطاليا.
أدركت ذلك في زيارتي التالية للمكان، العلمين تقع على بعد مائة كيلو متر من الإسكندرية تقريبًا، لم تكن يومًا بلدًا كبيرًا حتى بمعايير الصحراء، هي منطقة قاسية الطبيعة تقع بين البحر المتوسط ومنخفض القطارة يتوزع فوقها سكان قليلون ينتمون لقبائل على الأحمر وعلى الأبيض والجميعات، الأولى من المعادي والأخيرة من المرابطين. ومنخفض القطارة هو تقريبًا أشهر منخفضات الصحراء الغربية في إفريقيا. ولا تزال الأجيال المتعاقبة في مصر تحلم بتنفيذ مشروع منخفض القطارة لإنتاج الكهرباء عن طريق شق قناة من البحر المتوسط تنقل المياه إلى المنخفض إلى عمق ٢٠٠ متر تحت سطح البحر يتيح الفرصة لإدارة توربينات ضخمة تولد الكهرباء. إنه مشروع أسطوري لا يزال في دنيا الأساطير.

العلمين، صحراويًا مشابهة لغيرها، وعسكريًا تختلف. فالبحر في الشمال، وفي الجنوب على بعد ثمانية وثلاثين ميلاً يبدأ المنخفض الشهير ومنطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية التي يستحيل عبورها. بالضبط كما يستحيل العبور من الشمال

بسبب البحر، والعلمين أيضًا هضبة ترتفع ستمائة قدم عن بقية الصحراء.

كل مكان في الصحراء يسمح بحركة الالتفاف إلا هنا، وهذا ما وقف روميل عاجزًا أمامه. إن أحد تكتيكات روميل المعروفة هو الالتفاف السريع حول الخصم وتطويقه وقطع خطوط إمداداته والإيحاء له بأنه محاصر فيسود الهرج صفوفه وتتم بسهولة عملية تمزيقه وإبادته. كان البريطانيون يعرفون العلمين جيدًا فتوقفوا عندها في تقهقرهم أمام القائد العبقري، لقد كانت هزيمة بريطانيا في الشرق الأوسط كافية لإخراجها من الحرب بسرعة بسبب البترول الذي يدير دباباتها وطائراتها، لذلك لم يكن الإنجليز مستعدين للتخلي عن العلمين بسهولة..

العلمين إذًا كانت وما زالت موقعًا دفاعيًا نموذجيًا لكنها لم تختلف عن بقية الصحراء في خصائصها، في طقسها وأرضها. فكثبانها تتفاوت ألوانها من البني إلى الأبيض الجيري على الشاطئ، تسقط عليه أشعة الشمس فتجعله أبيض ناصعًا في الظهيرة، وبعيدًا عن المناطق المزروعة بالتين تجد الحشائش الليفية والنباتات الشيطانية الشائكة، وبها دائمًا خطر العقارب والحيَّات المقرنة الصغيرة والقوارض. والزواحف الكبيرة والذباب، وهذا كله كان موضع عذاب للجنود، لكن قرب العلمين من الإسكندرية وفر للجنود المياه ووسائل النظافة. وفر للجيش عمومًا الإمداد التموينى والغطاء الجوى.

الأرض في هضبة العلمين متماسكة تحت طبقة الرمال الضحلة لكن هناك مساحات من الرمال الناعمة، كما أن الأرض الصخرية المفيدة بالتأكيد لحركة الدبابات، ليست مفيدة لحركة الجنود الذين عليهم حفر خنادق لهم وسط هذه الصخور، وأي مقاتل يعرف أن جندي المشاة المحروم من الحفر لإخفاء نفسه وأسلحته إنما هو حيوان عار ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن فراغ الأرض الصحراوية يستوعب مليون دبابة وسيارة ومدفع وأكثر إذا وجدت من يملكها. وفي هذا الفضاء يمكن فتح جميع أنواع النيران التي تهلك الجماد والحيوان، كما أن هذا الفراغ من الأرض يتيح حرية المناورة ويغري بها، وهذا ما حدث مع روميل في هجومه على الجيش الثامن وطرده من برقة ومطاردته حتى العلمين. إن حرية المناورة، وهي في علم الحروب عمل تكتيكي، تؤدي في الصحراء إذا تمادى القائد فيها، إلى عيب استراتيجي خطر هو بعد القوات عن قواعد إمدادها، وهذا ما حدث مع روميل أيضًا وصل إلى العلمين وترك قواعد إمداده في برقة.

«بعد الحرب لم اقابل جنديًا واحدًا من الفرقة الإسكتلندية. هل تعرف ماذا كان يفعل جنود الفرقة الإسكتلندية، كانوا يعزفون موسيقى القرب. لا أنسى يوم وصولهم إلى المحطة، لقد ملأوا الدنيا صخبًا

بمزقهم، وراح جنود السود الأفريكان يرقصون حولهم والجنود الجنوبيون يضحكون في دهشة، قال لي جاويش هندي إنهم جاءوا ليمزقوا لهم ساعة الحرب على القرب ليشجعوهم على اقتحام الموت، كان هو يعرف قليلاً من العربية إذ عمل من قبل ملاحًا على سفن تنقل التوابل إلى البصرة، وكنت أنا أعرف بعض الإنجليزية من المعايشة للإنجليز في الإسكندرية وفي العلمين».

ذهاب سريع وإياب

قلت إن ساحل مريوط كان مسرحًا لدخول وخروج الجيوش والقبائل من مصر وإليها على فترات طويلة متفرقة من التاريخ، وقلت في الجزء السابق من المقال، إن هذا الذهاب والإياب حدث مرة أخرى لكن بإيقاع أسرع إبان الحرب العالمية الثانية. لقد دخلت إيطاليا الحرب عام ١٩٤٠، وكان معنى ذلك فتح ميدان جديد في إفريقيا للقتال بدأ المارشال جرازياني الزحف إلى الحدود المصرية. احتل السلوم ثم بقبق وتوقف عند سيدي براني. دخل إذًا حوالي تسعين كيلومترًا في الأراضي المصرية، عند نهاية العام انطلق الجنرال (ويفل) من مصر فاستولى على سيدي براني وأسر آلاف الإيطاليين الذين تم شحنهم إلى الإسكندرية في القطارات، واستعاد بقبق والسلوم ودخل الأراضي الليبية فاستولى على (البردية) عام

١٩٤١ وأسر نحو عشرة آلاف جندي إيطالي أرسلهم بالسفن والطائرات إلى الإسكندرية، ثم احتل طبرق بعد حصار لسبعة عشر يومًا، ثم احتل (درنة) ثم (بنغازي) عاصمة إقليم برقة وفي شهر مارس استولت قواته على واحة جغبوب وظهر للعالم انكسار العسكرية الإيطالية، فتمت إقالة (جرازياني) وتولى (اروين روميل) الألماني - طبعًا - قيادة قوات المحور وطارد القوات البريطانية في حركة معاكسة فاستعاد بنغازي ثم بئر حكيم التي كان يدافع عنها الفرنسيون الأحرار، وترك طبرق خلفه محاصرة وانطلق إلى مصر. في يونيو من عام ١٩٤٢ سقطت طبرق بطريقة مخزية صارت حديث العالم حيث تم أسر ثلاثين ألف من جنود الإمبراطورية البريطانية. منح هتلر روميل رتبة فيلد مارشال، وأرسل إلى موسيليني يقول:

(إن آلهة المعارك تزور المحاربين مرة واحدة، غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى) كان يقنع موسيليني بضرورة استمرار روميل في الإنطلاق داخل مصر، واندفع روميل بجنوده طاردين أمامهم الإنجليز والنيوزيلانديين والأستراليين والفرنسيين والهنود واليونانيين وقليل من المصريين من حرس الحدود والبدو والجمال والماعز والأغنام والوحش والهوام وساد الزعر البلاد..

عندما وقفت مرة ثانية أمام مقابر الكومنولث بالعلمين أتأمل جمال زهورها وأرضها وتنسيق أشجارها كنت قد أدركت أنني أبلغ من العمر ما كان أبي قد بلغه بالضبط وهو يقف في نفس المكان الذي كان يعج بحركة المركبات والجنود، لا الصمت وجلال الموت كما هو الآن، كنت مشيت إلى محطة السكة الحديد وعدت، صعدت فوق رصيفها ومشيت ونزلت وعدت، كنت أحاول أن تطأ قدمي كل مكان ممكن حتى أفوز بالوقوف فوق كل مكان وقف عليه أبي. تخيلته في حيرته على رصيف المحطة يتأمل هذه القوات الغريبة من كل العالم، وهو الفلاح الأصيل الذي لم يكن يتصور أن خلف قريته بلادًا، كم مرة فكر في أمي، وكم مرة اشتاق لرؤية أختي الكبرى التي كانت على قيد الحياة، بينما مات أول أبنائه من الذكور. ترى هل كان يفكر في أمه وأخوته؟ ذلك كله زمن لم أعشه. لقد أتيت إلى الدنيا بعد انتهاء الحرب. لا بد أن أبي كان حزينًا وهو يقف بعيدًا عن أهله على محطة كل من ينزل بها غريب من بلاد بعيدة مفرطة في البعاد. لقد تركت الدموع تنزل من عيني على مهل، وتركت نفسي أمشي بين المقابر أقرأ أسماء الجنود. أسماء مألوفة بالنسبة لي، أسماء بريطانية. لكني حين انحرفت إلى يسار المقبرة، ناحية الشرق منها، ووقفت أمام أسماء الجنود الهنود راعني تشابه

أسمائهم من ناحية، وما راعني أكثر هو أعمارهم.

مقابر الهنود، أو ما تبقى من الموتى! جزءان. جزء به رفات عدد ضخم من الجثث تم حرقها جميعاً، أكثر من ستمائة جثة؛ لاحظ أن المقابر ليست لكل الشهداء فهناك شهداء لم يتم التعرف عليهم، وشهداء أكلتهم السباع والطير، وما هو موجود بالمقابر أعداد رمزية لضحايا تلك المعركة - وإلى جانب الجثث المحروقة والموضوع رمادها في مكان واحد تمتد قبور مميزة الشاهد كتب عليها باللغة العربية (الله غفور) ثم أسماء لقلام وسردار ومحمد وهاج الدين وضياء الدين وغيرها من أسماء المسلمين الهنود - لم تكن هناك باكستان بعد وأغلب هؤلاء المسلمين من بيشاور أفقر مناطق الهند ذلك الوقت، وباكستان حالياً، وأعمارهم جميعاً أقل من عشرين سنة، كذلك وجدت أعمار الهنود الهندوس الذين تم حرق جثثهم، كان بينهم عدد كبير لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، كان أبناء المستعمرات إذاً وقود الحرب وكان موتهم بأعداد هائلة.

بين القبور مقبرتان لجنديين يهوديين كُتب على موطنهما اسم (إسرائيل) لم تكن هناك إسرائيل وقت الحرب لكن المقابر التي أقيمت في فترة لاحقة، وبالأحرى الذين أقاموا المقابر من المسئولين الإنجليز، لم يجدوا معنى لذكر اسم فلسطين موطناً ليهوديين تم التعرف عليهما ضمن كثيرين قد ماتوا

دفاعًا عن الإمبراطورية البريطانية، ربما، لكن المؤكد أنهما كانا يتدربان مع غيرهما على القتال الذي سيجري بعد ذلك مع العرب.

لكن مقبرتين لجنديين سودانيين أوقفتاني بشدة، عند باب المقابر المهيب تقرأ أسماءالدول التي شاركت في المعركة، وتقرأ على الجدران قصة المعركة كاملة باللغة الإنجليزية وتقرأ أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين لكل دولة، كان أكثر قتلى الكومنولث من الهنود، وكان أكثر الجنود بسالة الأستراليين، وكان أقل عدد من الجنود شارك في المعركة من السودان، وهذان الجنديان قد قتلا وتم التعرف عليهما فاقيمت لكل منهما مقبرة. إن السؤال المضحك المبكي معًا هو ما معنى احتياج جيش بهذا العدد الضخم إلى جنديين من السودان. أحد هذين الجنديين يحمل اسم (الصافي النعيم) اسم جميل ذو دلالة، لا بد أنه كان قطعة من الجنة ففضل الالتحاق بها بسرعة، لم يتجاوز أي منهما الخامسة والعشرين كل جنود المستعمرات أقل سنًا من جنود بريطانيا وأستراليا لكن أصغر الجميع جنود الهند صبية وأطفال أراد لهم الله، والكومنولث، الموت في صحراء العلمين، إنك لا تستطيع بسهولة أن تبرئ الحلفاء من الخطأ رغم أن الحلفاء كانوا يحاربون من أجل الديمقراطية وضد العنصرية،

للفرنسيين مقبرة صغيرة مستقلة، وللبونانيين

أيضًا، وللألمان مقبرة صغيرة بعيدة بحوالي خمسة كيلومترات غرب مقابر الكومنولث، وقريبة من البحر وعلى ربوة عالية، أقيمت فيما بعد. للإيطاليين مقبرة ضخمة مهيبة عالية متأخرة تبعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الغرب من مقابر الكومنولث، وهي أيضًا تقع على البحر مباشرة، جوار المقبرة الإيطالية مسجد صغير. ومقابر قليلة لعدد من الجنود الليبيين الذين كانوا يحاربون في صفوف جيوش المحور. عدد قليل أخذ عنوة، المقبرة الإيطالية مستديرة أسطوانية شاهقة كبرج مكسوة جدرانها بالمرمر وداخل الجدران رفات الجنود، وعليها كتبت أسماؤهم بعناية، والمقبرة الألمانية أصغر، بها أربع مقابر جماعية. وبينما يغلب الطابع العصري على معمار المقبرة الإيطالية الضخمة، يغلب الطابع الفرعوني، الممزوج بالطابع الكنسي على المقبرة الألمانية، حارس المقبرة الألمانية يغلقها دائمًا ويجلس في بيته القريب، وعلى من يريد زيارتها أن يناديه، حارس المقبرة الإيطالية موجود يقظ طوال الوقت. طويل قوي رغم سنى عمره السبعين، عاصر الحرب أيضًا ويجلس يحكي قصصها الحقيقية ممزوجة بالخرافة.

قصة الحرب الخرافية

[لم يكن لدى روميل غير إناء صغير به ماء، وكذلك كان مونتجمري، جلس كل منهما في مكانه وراح ينفخ في الإناء، ينفخ روميل فتخرج من الإناء الجنود

والبنادق، وينفخ مونتجمري فيخرج من الإناء الجنود والبنادق التي تلتحم بجنود روميل الذي بدوره ينفخ من جديد فتخرج الدبابات تلحق بجنوده فيستدين مونتجمري بنفسه الأقوى فتخرج الدبابات الأمريكانية، لكن روميل ينفخ بكل ما أوتي من قوة فتخرج من المياه الطائرات فيقابلها مونتجمري بنفخة طويلة عميقة وهكذا حتى انقطع نفس روميل الذي كان مريضًا وظل مونتجمري ينفخ في الإناء فيخرج الجنود ويخرج السلاح حتى انتصر الإنجليز.. شياطين[1].

هكذا حكى لنا يقال عجوز قصة الحرب ونحن أطفال، لكن أبي قال شيئًا آخر..

(لم أغادر المحطة طوال فترة الحرب، كانت القطارات لا تكف عن نقل الجرحى ومن يمكن إخلاؤه من الموتى، كانت القطارات تتحرك عادة بالليل، وكانت العلمين هي آخر محطة لها في الصحراء منذ دخول روميل الأراضي المصرية، كان صوت المدافع لا ينقطع بالليل ولا النهار وهجوم الطائرات لا ينقطع أيضًا. ومن البحر كانت تأتي قذائف قوية وكنت أسمع أحيانًا صوت موسيقى القرب وسط كل ذلك الصخب والموت. لعل الصوت كان في أذني منذ سمعتهم أول مرة. لقد ماتوا جميعًا كما عرفت.

(بعد المعركة مشيت. تركت نفسي أمشي بين أشلاء القتلى لمسافة بعيدة، بصعوبة كنت أجد

لقدمي مكانًا على الأرض، القتلى يتجاورون، من كل الأمم، جنود المحور مختلطون بالحلفاء، الدم متخثر على الجثث والرمال،. النمل يرعى في الأجساد الممزقة وآلاف من الأذرع المفصولة والسيقان المقطوعة والأقدام داخل الأحذية والرءوس داخل الخوذات بعيدًا عن الأجساد والجماجم المتفحمة والأجسام المحترقة لجنود كانوا منذ ساعات أو أيام أحياء. اختلطت الكوفيات الحريرية للضباط بالكوفيات العادية، واختلط أصحاب الركب البيض ـ وهو تعبير كان يطلق على الجنود الجدد قليلي الخبرة بحرب الصحراء ـ بذوي الركب الحمراء ولم تعد السترات الصوفية تقي أحدًا من البرد لأنهم موتى، قبل المعركة كانت الإسكندرية شبه خالية من أهلها، هاجر السكان إلى محافظة البحيرة حيث أقامت لهم الدولة معسكرات إيواء، وهاجر من لهم أصول ريفية إلى بلادهم -وكانت منهم أمك وأختك ـ هكذا قال أبي ـ وكان اليهود في ذعر فباعوا كثيرًا من ممتلكاتهم بأثمان بخسة وهاجروا إلى فلسطين).

وكانت السنوات منذ دخول إيطاليا الحرب سنوات قلق وصل إلى ذروته بعد تولي روميل قيادة الفيلق الإفريقي، وكانت الغارات الألمانية الإيطالية على الإسكندرية ثقيلة، وقصة انقسام البلاد بين مؤيد لألمانيا ومؤيد لإنجلترا معروفة في تاريخ مصر الحديث لكن من أغرب الأحداث ذلك الخطاب الذي أرسله قائد منطقة إسكندرية العسكرية إلى وزارة

العربية يسأل عما يجب عمله حال دخول قوات المحور إلى المدينة. هل يقاوم أم يستسلم؟ عرض الخطاب على وزير الحربية حمدي سيف النصر فلم يرد عليه، لكن قائد منطقة الإسكندرية عاد وأرسل نفس السؤال فأمر وزير الحربية بنقله. لم يكن يدري قائد المنطقة المأزق الذي سببه لوزيره، فهو إن أجاب بالمقاومة قد يقتله الألمان إذا نجحوا في احتلال البلاد، وإذا أمر بالاستسلام سيحاكمه الإنجليز. وشاع بالبلاد أن السلطات البريطانية تفكر في نقل فتيات الأتسا (A.T.C) من المجندات البريطانيات وكن نحو ٥٠٠ فتاة مهمتهن الترفيه عن الجنود، وتفكر جديًا في تهريبهن إلى الأقصر حتى لا يستمتع بهن الألمان إذا دخلوا البلاد!

لقد تسلم مونتجمري القيادة في الخامس من أغسطس ١٩٤٢ وكان من أكبر مشاكله كيف ينزع من وجدان الجنود البريطانيين وحلفائهم فكرة أن روميل قائد لا يقهر. وواتته الفرصة في نهاية الشهر حين حاول روميل اختراق الدفاعات البريطانية من منطقة (علم حلفا) لقد استمرت المعركة أسبوعًا بلا نتيجة ولم يستطع روميل اختراق الدفاعات البريطانية لأول مرة، وكانت هذه أول هزيمة حقيقية للمحور تنذر بهزيمة على كل الجبهات، وبدأ مونتجمري يستعد للمعركة الفاصلة. (كنت في حاجة أن يهاجمني والآن أنا الذي سأهاجمه) قال ذلك بعد فشل روميل في معركة علم حلفا. وفي ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر

وقبل الساعة الثامنة والنصف حيث اندلع القتال كان الجيشان اللذان يواجهان بعضهما يتكونان كالآتي:

مائة وأربعة وسبعون ألف جندي من دول الكومنولث والحلفاء مقابل مائة وثمانية آلاف من الإيطاليين والألمان، ألف ومائة دبابة لدى الحلفاء بينها الدبابات الأمريكية شيرمان وجرانت قوية الدروع في مقابل ستمائة دبابة لدى المحور. مونتجمري على رأس جيوشه، وروميل في ألمانيا للعلاج، ولم يصل إلى ميدان القتال إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاعه، تفوق في طائرات الحلفاء وقرب امداداتهم.

لقد أخذ الهجوم مراحل ثلاث. في الأولى تداعت خطوط المحور الأمامية، وفي الثانية تقدم الحلفاء ماحقين الهجمات المضادة لجيش روميل فاتحين طرقاً في حقول الألغام الشيطانية التي حملت وما زالت اسم حدائق الشيطان، وفي الثالثة مطاردة قوات المحور الهاربة بعد أن فقدت ثلثي قواتها وخمسمائة دبابة وكميات لا تحصى من العتاد.

لقد بدأت مرحلة المطاردة هذه مع أول نوفمبر، بعد ثمانية أيام من القتال الضاري، مات فيه الإسكتلنديون على كثرتهم، لأنهم كانوا يعزفون، والسودانيون على قلتهم لأنهم كانوا في جيش لجب! وفي الثامن من نوفمبر حدث الإنزال الأمريكي الأوروبي على شواطئ المغرب والجزائر بقيادة

إيزنهاور، بدأ الزحف من الناحيتين فاستطاعت كل القوات الباقية من جيش روميل الذي استطاع الوصول إلى ألمانيا لكن بعد أن انتهى الوجود الألماني الإيطالي من إفريقيا.

في الثامن والعشرين من أكتوبر كتب روميل إلى زوجته:

(ما زال في وسعنا الصمود. لكن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة).

في الثاني من نوفمبر كتب إليها:

(قتال ثقيل جداً لا يدور في صالحنا. العدو بقواته المتفوقة يخرجنا ببطء من مواقعنا. إنها النهاية. يمكن أن تتصوري شعوري. غارة جوية بعد غارة جوية بعد غارة جوية).

وفي الثالث من نوفمبر كتب:

(بالليل أستلقي مفتوح العينين مجهداً عقلي في سبيل إيجاد مخرج لجنودي المساكين من هذه المحنة. إن الموتى محظوظون فلقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم).

لقد شربت رمال العلمين دماء ثلاثة عشر ألف قتيل وجريح من دول الحلفاء، وخمسة وعشرين ألف قتيل وجريح من دول المحور قيالة من نهر من الدم جرى على الأرض المهيأة من سالف الأزمان للقتل. إن الموتى المحظوظين، جنباً إلى جنب مع الأحياء، هم الذين أعطوا العلمين أهميتها كمعركة لم يتهزم بعدها

العلماء ولم يتقصر العصور والآن لا بد أن العدد الأغلب من الأحياء قد لحق بالموتى، وهؤلاء جميعًا أعطوا المكان أهميته التاريخية، إن الموتى من الهنود والنيوزيلانديين والأفريكان هم فقط الذين لا يزورهم أحد حتى الآن، كانت بلادهم مقبرة أيام الإمبراطورية، وظلت فقيرة بعد أن غابت الشمس عن الأسد البريطاني! مساكين أبناء آسيا وإفريقيا يقاسون الوحدة في الحياة والموت. ومن فضائل الله أنه أزادهم من نعمة النسيان فظل من عاش منهم باقيًا في الحياة!!

الرحلة السابعة

هل هي رحلة؟

الإسكندرية/ صورة شخصية

أصوات حالمة حبيبة، أصوات أولئك الذين ماتوا، أو أولئك الذين هم بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى، تتكلم في أحلامنا أحياناً، وأحياناً في الفكر يسمعها العقل، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى مثل موسيقى بعيدة في الليل تخبو.

(كفافيس...)

عروس دائمة للبحر

هل كان ذلك الفتى النبيل، الإسكندر تلميذ أرسطو النابه يعلم أنه لا يقيم فقط مدينة تحمل اسمه خالداً على الزمان، وإنما يقيم عالماً بأسره وتاريخاً كاملاً، أغلب الظن أنه كان يعرف.. وهو لم يكن معنياً بالخلود فقط، بل بتغيير الدنيا.

المسافة من جزيرة فاروس – الأنفوشي حالياً – إلى راقودة – كرموز الآن – يقطعها السائر على قدميه في أقل من ساعة، ولابد أنه كان يفعل ذلك قبل الميلاد في وقت أقل أيضاً، ذلك أنه لم تكن هناك بنايات يدور حولها ولا طرق محددة. كانت

الأرض مسطحًا من رمال وماء. لقد وقف الإسكندر بفرسه في راقودة فرأى آخر نقطة عند البحر - فاروس - فقرر أن يصل بينهما، لكنه مات قبل أن يتم ذلك.

لقد كان بطليموس الأول، وخلفه الثاني، هما اللذان أتما بناء الإسكندرية. لذلك أنا لا أصدق أن الإسكندر الأكبر مدفون في الإسكندرية، أعلم أن هناك دراسات كثيرة جادة تؤكد دفنه في مدينته، وأحترم كل هذه الدراسات، وكل المحاولات التي تمت لاكتشاف مقبرته، والتي اشترك فيها علماء كبار وجرسونات أيضًا! أعلم كل ذلك ولا أصدق أن الإسكندر مدفون بالإسكندرية. لقد وضع الإسكندر حجر أساس المدينة العالمية عام ٣٣١ ق.م وأوكل مهمة تخطيطها إلى دنيوكراتيس البارع في الهندسة وانتهى الأمر عند ذلك.

قام دنيوكراتيس البارع في الهندسة بتخطيط المدينة مثل رقعة من الشطرنج؛ شوارع مستقيمة من الشمال إلى الجنوب تقطعها شوارع مستقيمة من الشرق إلى الغرب، والعكس صحيح طبعًا وبين هذه الشوارع شارعان كبيران أحدهما من الشمال إلى الجنوب أغلب الدراسات تؤكد أنه شارع النبي دانيال الحالي، والثاني من الشرق إلى الغرب هو طريق كانوب القديمة أو طريق أبي قير حديثًا أو طريق الحرية ثم طريق جمال عبد الناصر الذي نسى

السادات أن يغير اسمه. الشارع الأول الذي يحمل اسم النبي دانيال الآن شارع صغير مريح للأعصاب تكسر مبانيه العتيقة المتوسطة الارتفاع غالبًا حدة ضوء الشمس فتجعله ظليلاً طوال النهار أو على الأقل محتمل الحرارة، وهو شارع به مجموعة من الآثار الرومانية مثل حمامات كوم الدكة القريبة، أو ضهريج مسجد النبي دانيال أو آثار البرديسي الواقعة بشارع البرديسي المجاور لسيدي عبد الرازق الوفائي المقابل للنبي دانيال. إذن تمون للنبي دانيال كلما اشتد، ووجب أن نقول إنه ليس بالنبي دانيال المذكور في التوراة لكنه الشيخ محمد بن دانيال الموصلي أحد شيوخ المذهب الشافعي الذي قدم إلى الإسكندرية في نهاية القرن الثامن الهجري واتخذ مسجد الإسكندر - هكذا كان اسم المسجد - مكانًا له يلقي فيه دروسه حتى توفي عام ٨١٠ هـ فحمل المسجد اسمه ونسي الناس اسم الإسكندر. هذه أعجوبة كاملة لأن الدراسات التي قالت بوجود قبر الإسكندر تحت الجامع ثبت عدم صحتها، وأولاد البلد قبل الدراسات بقرون أزالوا اسم الإسكندر غير الموجود من فوق الجامع ووضعوا اسم ابن دانيال الموجود. أما تحور الاسم إلى النبي دانيال فربما لقرب المكان من حي العطارين حيث تجارة اليهود والجاليات الأجنبية والأغلب أن الحس الشعبي لا يفرق مع الوقت بين ولي ونبي.

هذا الشارع شبع حفرًا في سنوات الستينيات والخمسينيات بسبب جرسون مجنون كان اسمه (استيليوس) كان يونانيًا يزعم أنه عثر على مخطوطات تحدد وجود قبر الإسكندر، وفي أوائل السبعينيات أظن عام ١٩٧٢، اشيع ان شابًا كان يمشي مع خطيبته بالشارع وعند التقاء الشارع بطريق الحرية غارت الأرض وسقطت خطيبته فيها وضاعت. لقد رأيت أنا هذه الحادثة، ورأيت فرق الإنقاذ وهي تحفر الأرض بحثًا عن الفتاة التي ابتلعتها الأرض كان أهل الإسكندرية يخرجون جماعات يحبطون بعمال الإنقاذ في انتظار العثور على الفتاة، وأعلن عمال الإنقاذ أن الأرض تحت الشارع مليئة بالآثار والغرف والطرق السحرية لقد ضاعت (مرفت) إلى الأبد. هكذا كان اسم الفتاة.

لقد أحيطت الإسكندرية القديمة بسور كبير زال واندثر مع الأيام. سور وقف أمامه أنطيوخوس الرابع ملك سوريا حين أراد غزو مصر عام ١٧٠ - ١٦٨ ق.م ولم يدخل الإسكندرية لكن الذي دخلها كان دقلديانوس، الإمبراطور الروماني الشهير الذي تفنن في تعذيب المسيحيين والذي سمي عصره بعصر الشهداء وبإحدى مذابحه بدأ التقويم القبطي لقد استطاع دقلديانوس دخول الإسكندرية التي كانت قد أعلنت الثورة عليه وخلعته من حكم روما، وأعلنت قائد ثورتها لوكيوس دويمتيوس إمبراطورًا ووقف دقلديانوس ثمانية أشهر أمام السور بين عامي ٢٦٥ -

٢٦٠ ميلادية ثم نجح فى دخول المدينة وحولها إلى حمامات دم.

(يقال إن أهل الإسكندرية على طول التاريخ كانت لهم حرفة واحدة رئيسية هى السخرية من حكامهم بقول الشعر والانشغال بمصارعة الديكة لذلك لم يكن هناك صفاء أبدًا بين أهل الإسكندرية وأى من الحكام الذين لم يتوقفوا عن اضطهادهم حتى كاد الشعب يباد).

أنا أصدق هذه المقولة حينما أتذكر أن محمد على باشا تولى أمر البلاد المصرية عام ١٨٠٥ وكان تعداد أهل الإسكندرية ثمانية آلاف، هى التى بلغ تعداد سكانها فى العصر الرومانى إلى ثلاثمائة ألف حر، وتستطيع أن تضيف مثلهم من العبيد.

نعـود إلى دقلديانوس هذا لتعرف أن أهل الإسكندرية هم أنفسهم فيما بعد، بعد أن استقرت الأوضاع، ورفع عنهم جزية القمح، التى كانوا مضطرين لدفعها إلى روما، قاموا بتخليد ذكرى دقلديانوس الرهيب بإقامة نصب تذكارى من أجمل ما حفظته لنا المدينة من آثار ألا وهو عمود السوارى الذى يقف شامخًا على ربوة السرابيوم بكوم الشقافة برقودة القديمة، أو كرموز الحالية. سكان حى كرموز يتصفون بالجسارة والقوة حتى الآن رغم أن الحى الشعبى العريق عشش فيه الفقر والمخدرات، فى هذا الحى عشت طفولتى وصباى، فى صباى كنت أنظر

إلى عمود السوارى الشامخ مندهشًا لا أعرف عنه أكثر من كونه أثرًا جميلاً. فيما بعد عرفت أن الموقع الذى أقيم فوقه من أهم الآثار وكان فوق نفس الهضبة معبد السرابيوم الذى أسماه العرب قصر الإسكندر، وكان عمود السوارى يتوسط أربعمائة عمود ترفع القصر الذى تهدم، الأعمدة نفسها حملها الجنود أيام صلاح الدين الأيوبي وألقوا بها في البحر لتحصين الإسكندرية.

الآن من يغطس في الميناء الشرقية بالإسكندرية يرى هذه الأعمدة الغارقة. أسفل هضبة كوم الشقافة، توجد جبانات أثرية خالية الآن كنا ندخلها في صبانا باعتبارها مغارات، نحمل في أيدينا شعلاً من نار على طريقة المستكشفين ونطارد الخفافيش. كان يسكن الهضبة جماعات فقيرة من النوبيين يبيعون الفول السودانى واللب فى القراطيس يجوبون بها شوارع الإسكندرية، وبعض من التجر الذين كنت أحب رقصهم وغناءهم والحلقان فى أنوفهم والوشم الأخضر على كل جزء عار من أجسادهم. عمود السوارى حقيقة لكن مثل كل حقيقة كبيرة دارت حوله الأساطير. ومن أبرز ما قيل من خرافات أن أكثر من عشرين شخصًا تناولوا غداءهم مرة فوق تاج العمود، أو أن رأس (بومبى) موجودة فى جرة فوق تاج العمود، لكن المؤكد أنه جرت محاولة لإقناع كل من لويس الرابع عشر، ومن بعده الخامس عشر، بنقل العمود إلى فرنسا ليكون قاعدة لتمثال كل منهما على التوالى. والحمد لله أن أحدهما لم يقتنع بالفكرة.

عمود السوارى قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر طولها ٢٠،٧٥ متر ومساحتها عند القاعدة ٢،٢٠ متر وعند التاج ٢،٢٠ متر قطعت من جبال أسوان ونقلت سليمة إلى الإسكندرية لينقش عليها بالهيروغليفية واليونانية ما يؤكد أنه أقيم تخليدًا لذكرى الإمبراطور المتوحش.. أنا لا أصدق. لابد أن أتباع هذا الإمبراطور هم الذين فعلوا ذلك والصقوه بأهل الإسكندرية، لم تكن الإسكندرية تعتبر جزءًا من مصر، كان اليونانيون ومن بعدهم الرومان يقولون عنها الإسكندرية المجاورة لمصر، ولبث من يومها تاريخًا مستقلا، صارت سيدة العصر الهلينى، كان طولها فى بدايتها خمسة كيلو مترات وعرضها حوالى الكيلو متر والنصف طولها ازداد مع الزمن. عرضها لم يزد كثيرًا بسبب بحيرة مريوط التى تضغط على جنوبها، وبحيرة إدكو والصحراء، لذلك مكتوب على الإسكندرية أن تستطيل مع البحر، أن تنام حتى القيامة فى حضن الموج، هى عروس دائم للبحر المتوسط، هكذا أرادتها الطبيعة رغم ما يقذفه بها بنو الإنسان من تلوث وتخبط واستبداد.

حكاية الترعة

من أهم أسباب ازدهار الإسكندرية قديمًا وجود الفنار الشهير أحد عجائب الدنيا السبع القديمة، الذي شيده المهندس سوستراتوس بن ديكسيانس فى عهد بطليموس الأول لينتهى منه فى عهد بطليموس

فيلادلفوس حوالي عام ٢٨٠ ق.م. لقد كان الفنار يرتفع إلى ١٢٥ مترًا يهدي السفن إلى الميناء، وكان أيضًا يستخدم في حرق سفن الأعداء بالمرايا الضخمة تعكس حزمًا من أشعة الشمس مركزة عند اللزوم. لقد أباد الزلزال الفنار العجيب.

السبب الثاني المهم لازدهار الإسكندرية قديمًا كان وجود ترعة من المياه العذبة هي ترعة (شيديا) مكانها الآن سوق شيديا لابد، أو على الأقل مكان جزء منها. كانت الترعة تربط بين النيل والميناء. أي بين الإسكندرية وأعماق القارة الإفريقية.

اندثرت الترعة واضمحل شأن الإسكندرية واحتاجت إلى ترعة أخرى في العصر الحديث شيدها الباني من الأناضول، هو محمد علي باشا. هذه الترعة حملت اسم السلطان العثماني هذه المرة. أقصد بها ترعة المحمودية، أجل. ترعة المحمودية هي سبب ازدهار الإسكندرية في العصر الحديث. لقد مضى زمن طويل على الإسكندرية وهي مقطوعة الصلة بالقاهرة وإبان العصر التركي والمملوكي كانت قلعة قايتباي التي أقيمت مكان الفنار القديمة تستخدم كسجن ومنفى للخصوم.

لقد صدرت أوامر محمد علي باشا السنية ببدء حفر الترعة عام ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م وأن تعمق حتى تجري فيها المياه صيفًا وشتاء، وأمر حكام الجهات

بجمع الفلاحين للعمل والكلام هنا للجبرتي - فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب ومات الكثيرون منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه روح... يا ساتر يا رب.

لقد انتهت الترعة، وانتهى حفرها عام ١٨٢٨، وبلغ سكان الإسكندرية ستين ألفًا وفي عام ١٨٤٨ بلغوا مائة وثلاثة وأربعين ألفًا. من هذا الإحصاء تعرف ما الذي أضافته الترعة إلى المدينة التي تسلمها محمد على وسكانها لا يزيدون عن الثمانية آلاف.

لقد شاهدت فى صباى ترعة المحمودية هذه وهى عروس جميلة نظيفة تمشى فيها السفن الكبيرة على مهل حاملة بضائع الصعيد والدلتا إلى الميناء وإلى الإسكندرية عمومًا، وكان أكثر ما تحمله القطن والقصب والقمح، واستمعت إلى غناء النوتية العذب، وشاهدت جماعات السمار من الشباب والفتيات في الأماسي وقبل المغيب وهم ينطلقون فوق الماء في الفلك الصغيرة الملونة يمرحون ويتحابون. كانت متنزهًا للفقراء والمحبين الفقراء. كتبت رواية قصيرة هي (ليلة العشق والدم) تجرى معجمل أحداثها على هذه الترعة، كتبتها فيما بعد. لقد صارت الترعة مكانًا كريهًا لما أُلقى فيها من فضلات المصانع، صارت بؤرة للتلوث جنوب الإسكندرية. يقولون إنهم يعيدون تنظيفها الآن. لعل ذلك يكون صحيحًا. أنا لم

أجد في البلاد أمة تتخلص مما لديها من مسطحات مائية مثل أمتي التي برع أهل عصرها الحديث في ردم أجزاء كبيرة من البحيرات بدءًا من بحيرة مريوط بالإسكندرية حتى بحيرة البردويل في سيناء. على أي حال، أبناء جيلي من الأحياء الشعبية الجنوبية يحتفظون لهذه الترعة التي أعلت من شأن المدينة بذكريات جميلة. قفزت هذه الذكريات لتستحوذ بأسطورتها على جانب كبير من رواياتي، لا أحد ينام في الإسكندرية. وأكثر منها في رواية طيور العنبر. الأبرياء واللصوص التي كانت تطارد بحّارة السفن وتسرق بعض بضائعها. مازلت أذكر براعة أولئك اللصوص في السباحة والغطس لوقت طويل تحت الماء حين يداهمهم البوليس بالرصاص. أجل كانت تحدث معارك حقيقية لم تكن بالنسبة لي ولأصحابي في صبانا تختلف عن المعارك السينمائية فكنا نجري بين الفريقين بلا خوف من رصاص. كنا نطلق على اللصوص أسماء الأبطال السينمائيين حميدو وطرزان وغيرهما. كانت السينما هي العالم السحري الذي أدين له بالكثير من المعارف إلى جانب مكتبة الإسكندرية العريقة، مكتبة البلدية، ومكتبات قصور الثقافة التي أنشأتها الثورة ومكتبات المدارس أيام كانت هناك مدارس ومكتبات.. أحب أن أقف قليلاً عند السينما لكي أؤجل ذلك حتى أنتهي من الحديث عن الجنوب في الإسكندرية. ما دمت تحدثت عن المحمودية فلا بأس أن أتحدث عن البحر. الأول

منح الجنوب الرئيسي والثاني وجه الشمال إلى يوم شين وقبل أن أخرج من هنا أحب أن أقول إن الترعة سكنتني العقل والقلب وإنني أقمتها من جديد في أعمالي. لقد منحتني أسرارًا للوجود فمنحتها وجودًا أبديًا وأقمت عليها حارسًا للزمان والمكان في رواية طيور العنبر.

الشمال والجنوب

شمال الإسكندرية منذ نشأتها هو الحي الملكي، تغيرت المسميات والوجوه لكنه ظل حي الصفوة، الملوك والأثرياء!

قديمًا كانت المساحة المطلة على الميناء الكبير هي حي القصور الملكية الممتدة حتى (السلسلة). في هذا الحي الملكي شيدت أروع معالم العاصمة، عاصمة العصر الهليني، الإسكندرية. فإلى جانب القصور شيدت الحدائق والنافورات والمتاحف ودار الحكمة ومعبد بوسايدون إله البحار ومعبد قيصرون ابن كليوباترا ويوليوس قيصر التعيس الذي قتله أوكتافيوس مكتفيًا بوجود قيصر واحد، هو نفسه. مسكين قيصرون هذا ولد بسبب الفتنة، فتنة أمه ليوليوس قيصر، ومات بسبب الفتنة، فتنة أمه لأنطونيوس وفشلها في الحرب مع روما.

في هذا الحي الملكي شيدت أيضًا مكتبة الإسكندرية الشهيرة ودار القضاء، والجيمنازيوم والبانيون ذلك التل الكبير الذي أقامه أهل الإسكندرية

تكريمًا للإله (بان) بحيث يطل من يقف فوقه على المدينة كلها، إن بقايا هذا التل هي ما يعرف بكوم الدكة الآن، تلك التي تصب عليها نابليون مدافعه، والتي كان على سطحها معسكرات قوات (بلوك النظام) قبل الثورة ينطلقون منها لمقاومة المظاهرات، كان من بين هذه القوات عام ١٩٥١م ضابط اسمه سعد الدين وهبة سيأخذ قواته من الجنود لإنهاء إضراب عمال مصنع (سباهي) للنسيج القائم شرق المدينة عند كوبري صغير على ترعة المحمودية اسمه كوبري الناموس، سيمضي هذا الضابط الشاب وقته فوق الكوبري منتظرًا أحداثًا لا تقع سيكتبها فيما بعد في واحدة من أجمل المسرحيات العربية، مسرحية (كوبري الناموس) وعلى هذا التل الصناعي، ومع تقدم الأيام سينمو حي شعبي كتب عليه النسيان دائمًا هو حي (كوم الدكة) الذي لا يذكر إلا إذا ذكر سيد درويش سيد الموسيقى وشهيدها غريب. أمر حي كوم الدكة هذا، فالذي يمشي في طريق الحرية قادمًا من باب شرق سيكون الحي على يساره دائمًا يتفذ إليه من أي زقاق جانبي لكن نادرًا ما يلتفت شخص إلى وجود هذا الحي على اليسار، ليس من المعقول أن يكون خلف هذه العمارات الجميلة تل كبير عليه بيوت متزاحمة فقيرة، والذي يمشي مجاورًا للسكة الحديد لا يدرك أن خلف المشرحة العامة والأبنية الحكومية المختلفة يوجد تل فوقه بيوت مزدحمة هو كوم الدكة، لقد ولدت وعشت

فى الإسكندرية حتى الخامسة والعشرين من عمرى بشكل متصل ولم أدخل هذا الحى غير مرتين أو ثلاثة لزيارة بعض زملاء الدراسة الذين نسيتهم أيضًا الآن.

حى كوم الدكة هو الحد الفاصل بين الشمال والجنوب، بعده يترامى الجنوب بأحيائه الفقيرة كلها الممتدة حتى المحمودية كرموز - راغب - غربال - وتمتد بالطول، تمامًا كالإسكندرية، تشمل مينا البصل وباب الكراسته والقبارى حتى المكس الآن، بعد أن طالت المدينة واتصلت بالصحراء فى الغرب حتى منطقة العامرية، وبالزراعة فى الشرق حتى منطقة أبى قير.

وكما امتد الجنوب بأثر زحف أبناء الريف امتد الشمال بأثر ازدياد الأجانب فى الإسكندرية منذ تولى محمد على باشا ومع ازدهار المدينة المستمر، يقول على مبارك فى الخطط، (ولما كثرت الإفرنج والأغراب فى مدينة الإسكندرية واستوطنوها واستعوذوا على كثير من الفضاء الذى كان بداخل المدينة وضواحيها رغبوا فى سكنى الرمل وهى قرية شرق المدينة، بينها وبين أبى قير، وأكثروا من شراء الأملاك لقلة ثمن الأرض إذ ذاك).

وفى موضع آخر يقول (فى آخر زمن المرحوم سعيد باشا ابتدأ الناس فى سكنى جهة الرمل خارج المناطق العسكرية، فاتسعت المدينة وكثر سكانها

حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧٢ ميلادية (٢١٢ ٤٣٠ نفسًا من ضمنها ٢١٦ ٤٧ أغراب من ملل مختلفة).

إن أسماء المحطات والشوارع في الشمال والجنوب تريك إلى أي حد كانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتية، مدينة العالم الحقيقية ابتداء من (باكوس) إلى سوتر (وشوتس) و(جيليمونو بلو) و(ستانلي) و (فيكتوريا) وكامب شيزار وغيرها وغيرها من أسماء الشوارع أيضًا، في المناطق الشمالية أو في الجنوبية القديمة وبصفة خاصة منطقة كرموز - رقودة أصل الإسكندرية حيث كنت تجد على رأس كل شارع لافتة تحمل اسمه اليوناني القديم ثم اسمه العربي الحديث..

في جنوب الإسكندرية يتكدس الفقراء وتتكدس المصانع أيضًا، الشمال والجنوب قسمة ضيزى في كل الدنيا، الشمال يعيش دائمًا على حساب الجنوب في كل العالم.

* * *

الثانية عشرة والنصف. مضى الوقت سريعًا منذ أن أوقدت المصباح في التاسعة وجلست هنا، منذ أن أوقدت المصباح في التاسعة جاءني طيف جسدي في شبابه يذكرني بغرف مغلقة تفوح فيها العطور، ومتع عابرة، وكم كانت متعة جسورة. كم مثلت أمام عيني شوارع لم تعد معروفة ودور للهو اندثرت وكانت ضاجة بالحركة ومسارح ومقاهٍ كانت لها وجود ذات يوم جاءني طيف جسدي في شبابه وذكرني بالأحزان أيضًا.. الثانية عشرة والنصف. كيف مضى الوقت سريعًا هكذا. كيف مضت السنوات وولت؟

كفافيس

السينما.. السينما

لم ألحق بالأجانب. لحقت بالقليلين منهم وبالكثير من الذكريات يحكيها الكبار عنهم، كان أول اتصال كبير بيني وبينهم من خلال العنوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ طائرات تلقى بالقنابل على المدينة وغارات ليلية، أقل طبعًا مما جرى في الحرب العالمية الثانية لكن بالنسبة لطفل صغير مثلى ذلك الوقت كانت تلك هي الحرب، ورأيت الأيام الأخيرة لشوارع نصف البلد وهى مملوءة بالأجانب وبميدان المنشية وهو مركز لتجارة المال وتبديل العملة، كان كل شيء أبيض ونظيفًا في عيني الصبي القادم من حي كرموز الشعبي حيث كل شيء رمادي، طيور العنبر روايتى تحاول الإمساك بتلك الفترة كما حاولت من قبلها الإمساك بالمدينة تحت الحرب العالمية الثانية في رواية لا أحد ينام في الإسكندرية، المدينة في وجهين مختلفين. وجه الوجود القوي للأجانب ووجه الخروج الدرامى المثير، هما روايتاي المذكورتان على ترتيبهما فى الكتابة والنشر، لا أحد ينام ثم طيور العنبر.

السينما كانت هي المصعد السماوى الذى حملنى إلى عالم الآخر، الأجانب، أكثر من اي شيء آخر.

إن أول عرض سينمائي فى العالم كان عام ١٨٩٥م للأخوين لوميير في باريس. في العام نفسه كان أول عرض سينمائي في مصر في مدينة الإسكندرية

بمقهى الكوزمو - طبعًا لم يعد له وجود، لا المقهى ولا سينما الكوزمو فيما بعد. من يومها صارت الإسكندرية مدينة السينما الأولى، وفيها كانت أول استوديوهات ومنها خرج أول مخرج مصرى هو محمد بيومى الذى أنشأ استوديو بيومى فى الإسكندرية فى العشرينيات واخرج عددًا من الأفلام القصيرة. للدكتور محمد القليوبى كتاب مهم عن هذا الموضوع. وكانت سينمات الأحياء الشعبية هي باب الثقافة الكبير لي ولغيري من أبناء الشعب الفقراء، كنت أدخل السينما كل يوم، وأحيانًا مرتين فى اليوم الواحد. ولم يؤلمني شيء قدر هدم هذه السينمات واحدة بعد الأخرى منذ السبعينيات في القرن الماضي، وكانت أول مرة أشاهد فيها فيلمًا في سن الخامسة، أجل. كنت في مدرسة (روضة أطفال) في حي كرموز، وكانت أمي تذهب بي وتتركني ثم تعود وتأخذني آخر اليوم. وذات صباح رأيت باب الروضة مفتوحًا فخرجت، وجدت الشارع جميلاً وواسعًا فمشيت خطوات ووجدت زحامًا أمام باب فوقه صور جميلة ملونة والناس تدخل من الباب فدخلت معهم ولم يسألني أحد شيئًا، ربما لصغر حجمي ذلك الوقت مما لم يلفت انتباه الحارس. وجدت الناس تجلس فجلست أظلم المكان ولم يخف أحد فلم أخف. بدأت الصور تخرج على الشاشة. يا إلهي أي بشر مسحور هذا الذى وقعت فيه. من يومها صرت كل يوم، تذهب بي أمي إلى الروضة وتعود فأخرج أنا إلى

حفلة السينما الصباحية، وتأتي أمي وأكون أنا قد عدت من الحفلة وأقف أمام باب الروضة. هكذا كنت أصغر طفل في العالم تسريبًا يهرب من المدرسة، حتى جاء يوم أقبلت أمي مبكرًا ولم تجدني، وكانت كارثة. كنت الطفل الوحيد بعد أطفال ماتوا، وبدا أن أمي يمكن أن تشعل النار في الروضة ولا أعرف كيف مضى الوقت عليها حتى عدت من السينما. من يومها عينت صبيًا أكبر مني يحرسني حتى لا أذهب إلى السينما لكن هذا الصبي بدوره كان يأخذ مصروفي نظير أن يتركني أذهب إلى السينما!

أكثر من ثلاثين سينما شعبية تم هدمها منذ سبعينيات القرن الماضي، سينما مصر في كرموز وسينما الجمهورية في راغب. وسينما ستار في محطة مصر وسينما كليوباترا في الرابعة، وسينما التتويج في الأنفوشي، وسينما قيس، وسينما ليلى في باكوس، وسينما كوزمو وركس والشرق في المنشية، وسينما بارك وماجيستيك والهمبرا وريتس في محطة الرمل، وسينما الحضرة، وسينما محرم بك وسينما الهلال بالقباري، وسينما النصر بالدخيلة، وسينما سبورتنج وغيرها.. كنت مثل المجنون يجري بين السينمات وكلما رأيت فيلمًا، ذهبت أبحث عن الرواية الأجنبية التي أخذ عنها الفيلم. من السينما عرفت هوجو وملفل وديستويفسكي وتولستوي وسارتر وتوماس مان وهمنجواي وسومرست موم وكل كتاب العالم الكبار. ومنها فتنت بالملاحم الإغريقية والدراما الإغريقية.

كنت في الحادية عشرة من عمري وأراهن زملائي أن أذكر لهم عناوين مائة وخمسين فيلمًا أجنبيًا، وكنت أجري بين آلهات التمثيل وآلهته في السينمات، صوفيا لورين وأودري هيبورن ومارلين مونرو وأفاجا دنر وبرجيت باردو وكيم نوفاك وجينا لولو بريجيدا وغيرهن وبيرت لانكستر وكيرك دوجلاس وجون واين وروبرت تايلور وغيرهم وغيرهم وكلهم تسللوا إلى رواياتي فهم عجينة روحي لا يمكن فصلهم عنها.

لو لم أكن روائيًا وكاتبًا للقصة ربما كنت مؤرخًا سينمائيًا، أقول مؤرخًا لا ناقدًا، الحقيقة أنني مندهش من قدرة نقاد السينما على انتقاد أولئك العمالقة من الرجال والنساء. عمالقة التمثيل!!

في حياة كل منا مع فيلم ما قصة أو أثر ما. وأنا أتوقف كثيرًا عند فيلم سبارتكوس الذي شاهدته في سينما رويال بالإسكندرية عام ١٩٦١.

تقع سينما رويال في مكان محور تدخل إليه من طريق الحرية، أمامها مباشرة مسرح سيد درويش، أو محمد علي سابقًا، أي أنها تقع في منطقة شديدة الهدوء لا تطل على شارع رئيسي، ولا يذهب إليها إلا رواد المسرح من الخاصة ورواد هذه السينما ذات التاريخ الخاص، كنا في صبانا نحلم بدخول هذه السينما التي شاع بيننا أنه لا يدخلها إلا من يرتدي بدلة سموكن سوداء فاكتفينا بالحزن لكننا تجرأنا وذهبنا، وكان اليوم عيدًا في ذلك العام: كانت ملابسنا

نظيفة ولكنها لم تكن بدلاً ولم يطردنا أحد. تركونا ندخل ولم يسأل أحد عن هويتنا. رأيت جين سيمونز ذات الوجه الملائكي النحيل الحزين وهي تحكي ضاحكة باكية لكيرك دوجلاس – سبارتكوس كيف هربت من تاجر العبيد السمين الذي فشل في اللحاق بها. وكان هذا التاجر هو الممثل العظيم بيتر استينوف ورأيت جين سيمونز في آخر الفيلم وهي ترفع ابن سبارتكوس له وهو مصلوب تقول له إنه – ابنه – سيواصل الكفاح من أجل تحرير العبيد. منذ هذا الوقت لا تضيع مني صورة جين سيمونز ومأساة سبارتكوس وقد تغالبني دموعي حين أتذكرها. لقد كان فرحنا نحن الصبية لا يقارن ونحن نرى توني كيرتس يقوم معلناً أنه سبارتكوس، للرواس أوليفييه القائد الروماني وإمبراطور روما فيما بعد وهازم سبارتكوس. إذاً هذه الصورة من الفداء والتضحية لا تنسى خاصة أنه بعد أن أعلن توني كيرتس ذلك ليفدى زعيم الثورة، قام الجنود الأسرى واحداً إثر الآخر ليلعن أنه سبارتكوس في مشهد غير مسبوق في السينما العالمية. لقد ظللنا نحن الصبية نتفاخر بهذا المشهد حتى فرقت بيننا السنون. كنا كأننا الثوار نفدي زعيمًا مجهولاً.

لماذا أثر فينا هذا المشهد كل هذا التأثير؟ هل جاء متسقًا مع الطبيعة السكندرية، أم الطبيعة الإنسانية؟ الحقيقة أنه جاء متسقًا مع الاثنين معًا،

أبناء الإسكندرية ليس فيهم (نوع) هم أكثر أبناء المدن وضوحًا، مدينتهم مفتوحة للضوء والريح ولا شيء يخافون عليه لذلك مثلاً تجد كتاب الإسكندرية الذين يعيشون في القاهرة لا يكونون أبدًا شلة أو جماعة أدبية، الواحد منهم لا يرى حاجة إلى أية قوة إضافية، إنه لا يحتاج لتبرير الوضوح. السكندريون يكرهون الحيلة من أي نوع لذلك تشتهر الإسكندرية بأنها أول من يلبي نداء الثورة دائمًا. لقد كانت الإسكندرية هي مدينة مصطفى كامل المفضلة ومدينة عبد الناصر المفضلة أيضًا. هل هذا هو سر إهمالها فيما بعد؟!

والإسكندرية منذ العصور القديمة على رأيها. لقد خالفت الكنيسة السكندرية والكنيسة الرومانية وثبتت الكنيسة السكندرية على رأيها بالطبيعة الإلهية للمسيح وبانتفاء الطبيعة البشرية، وظلت حتى الآن لم تتغير وشاعت في الدنيا القولة الشهيرة: العالم ضد إثناسيوس، بابا الإسكندرية، وإثناسيوس ضد العالم.. لذلك شهدت الإسكندرية أكثر المذابح، في إحداها عام ٢٨٤ ميلادية سيق ثمانون ألف سكندري مسيحي إلى بلدة إسنا بجنوب مصر وقتلوا جميعًا. هذا هو عام الشهداء ومبتدأ التقويم القبطي. ولقد شهد حي رقودة، أكثر المذابح، وهو نفس الحي الذي سيشهد في الحرب العالمية الثانية أكثر الغارات الألمانية الوحشية على المدينة، لقد شغل ذلك، بل قامت عليه

فى جـانب مـهـم منهـا رواية (لا أحـد ينام فى الإسكندرية) كـذلك هو نفس الحى الذى به شـارع العوالم والغناء، هو حى الموت والحياة معًا..

إن الحـديث عن تاريخ الوطنيـة فى الإسكندرية طويل، ويكفي أن أذكر لك أنه في الرابع من مـارس عام ١٩٤٦ خـرجت مصـر كلها في مظاهر حداد على شهداء يوم ٢١ فبراير السابق. ذلك اليوم الشهير الذى فتحت فيـه قوات الشرطة كوبري عبـاس بالقاهرة وحاصرت الطلاب المتظاهرين بالرصاص فلم يجدوا أمامهم إلا الغرق في النيل.

تجد هذا المشهد المثير فى فيلم فى بيتنا رجل ـ المـهم أنه فى يوم الحداد ذلك اشـتبك شـباب الإسكندرية مع القـوات الإنجليـزية بمـيدان محطة الرمل حول تمثال سعد زغلول واستشهد من الشباب ثمـانيـة وعشـرون وجـرح ثلاثمـائة وخمسـون رغم أن تمثال سعد زغلول يعطى وجهه إلى البحر ويشير إليه قـائلاً بشكل مـا إن الإسكندرية لا تنفـصل عن المتوسط.

• • •

لم أكبح جماح نفسي. تركتها على مطلق سجيتها ومضيت إلى المتع التي تتأرجح بين الواقع والخيال. مشيت في الليل المضيء وشربت النبيذ القوي لمحبي المتع الشجعان.

(كفافيس)

قريبًا من الإسكندرية تم منذ سنوات اكتشاف قرية (ماريا) اليونانية التى كانت مركزًا لصناعة النبيذ تورده إلى الإسكندرية. الآن تمشى من المنتزه أبعد نقطة على الشاطئ شرقًا حتى قصر الملك فاروق برأس التين، أبعد نقطة على الشاطئ غربًا، فلا تجد مكانًا تشرب فيه النبيذ أو البيرة إلا فى الفنادق الكبرى، والمسافة بين فندق راماد مثلاً بسيدى بشر ومحطة الرمل حيث تجد ذلك فى مكانين أو ثلاثة مسافة طويلة، تزيد على الثمانية كيلو مترات، كانت زمان تعج بالحركة فى الملاهى الليلية المنتشرة على الشاطئ. هذه الملاهى كلها، ومنذ السبعينيات، وشيئًا فشيئًا تحولت إلى مقاه ومطاعم ترفع لافتة (الكحوليات ممنوعة)، وبعيدًا عن الكحوليات فإن اختفاء الملاهى نفسها استتبع اختفاء فرق الغناء والرقص الأجنبى التى كانت لها مواسم بالإسكندرية، والملاهى والمراقص والمقاهى قديمًا صنعت عالمًا باهرًا وعجائبيًا من اللحم الأبيض، فكانت الشوارع القريبة من البحر هى ملاذ نساء الليل فى الصباح الباكر، ونادرًا ما كنت تجد أسرة مصرية تسكن فى هذه الشوارع، كانت شوارع لطلاب الأغراب، وبالذات شارعا تانيس وطيبة، وكان أى طالب يستطيع أن ينظر من النافذة فى الصباح الباكر يشير إلى أية امرأة تمشى فى الطريق فتصعد لتنام عنده بقية النهار، كانت هذه الشوارع هى التجارب الأولى للشباب

الريفى الذي جاء يتعلم فى جامعة الإسكندرية، وكانت مقسمة إلى مناطق نفوذ يديرها بلطجية، ولقد رأيت فى تجربة مثيرة ولسنوات، ما تعانيه النساء من هذا الجو، كان أغلب النساء من الأجنبيات الفقيرات، شقر بيض أرمنيات ويونانيات وتركيات وإيطاليات ويهوديات وغيرهن، وفى الستينيات، وبالذات بعد هزيمة ١٩٦٧، وبعد أن بدأ المد الأصولى وبدأ مسلسل الإغلاق للملاهى أو تحويلها لمقاه، بدأت هؤلاء الأجنبيات في الاختفاء. لا أعرف اين ذهبن في الحقيقة. لابد أنهن متن!! وظهرت المصريات الضائعات، الفقيرات من الجنوب، أو الفقيرات من أهالى القناة الذين تم تهجيرهن من بلادهن تحت القصف الإسرائيلى، من بورسعيد والإسماعيلية والسويس. نساء لم تتحملن المعسكرات التى أقامتها لهن الدولة أو البيوت الفقيرة التي حشرن فيها فهربن إلى الفضاء السكندري الرحب. كانت هذه كلها فى نظر البعض شرورًا، لكنها كانت أيضًا متنفسًا بشريًا. الآن لم يختلف الوضع، زاد، لكن فى الخفاء. وأحيانًا عبر الإنترنت. فالإسكندرية مدينة مجنونة، لا ترى إلا بالمجد لكنها لا تتخلى عن الجنون فى أي زمن من الأزمان.

تشهد الإسكندرية الآن حركة تجديد واسعة، بالذات فى الكورنيش والمناطق الشمالية والذي يذهب إليها الآن لابد أنه سيسعد غاية السعادة والمدينة التى لم يحبها الحكام عبر تاريخها وجدت

محافظًا يحبها هو اللواء المحجوب فاسمه المحبوب، والمدهش أن السكندريين يتعاونون معه غاية التعاون، لماذا حقًا يكون ذلك مدهشًا؟ ربما بسبب السنوات الطويلة التي مضت في خصام بين الشعب وحكامه حتى صارت المدينة إلى يوم قريب بؤرة كبرى للتلوث، حتى صرحت منظمة الصحة العالمية في أحد تقاريرها أن الإسكندرية تحتاج إلى حملة عالمية للنظافة، كل ذلك يحدث الآن بالحاكم الذي أحبه الشعب السكندري. لكن الأشياء القديمة التي ضمنت مكانها في الذاكرة من الصعب أن تعود، حتى اللهجة السكندرية المميزة، الحديث بالجمع دائمًا، قد كادت تختفي إلا من أعداد قليلة جدًا من المسنين، ذلك أن الهجرة الواسعة من شمال وجنوب مصر كلها إلى الإسكندرية تركت أثرها على كل شيء. لقد حدثت حركة ترييف كبرى للمدينة لذلك فإن ما يحدث من تجديد في الإسكندرية الآن له قيمة كبيرة لأنه يقلب المدينة على الريف الزاحف وستسطع من جديد شمس الإسكندرية، ولو في ثوبها الشتوي، خاصة وأن الأيام القادمة ستشهد افتتاح مكتبة الإسكندرية كما ستصبح منطقة (أبو قير) متحفًا أثريًا وغير ذلك من المشروعات الثقافية، لكن، فليبق الماضي في الذاكرة ولنمسك بحاضر سكندري فيه أوجه أخرى من السعادة، وسيجد الشرف والجنون والمجون لهم طرقهم في الوجود.

الرحلة الثامنة
لاروشيل...
أين تذهب طيور المحيط؟

أحب محطات السكك الحديد، ولدت بينها وعشت بينها وركبت قطارات أكثر من أى شخص فى العالم.

أحب السفر بالقطار بالليل والنهار، وأحب النظر فى وجوه المسافرين والتكلم معهم، وأفرح باللقاء على الأرصفة ويحزنني الوداع.

هكذا وصلت إلى محطة سكة حديد لاروشيل، بعد رحلة ممتعة بالقطار من مونبارناس دى بارس، بين الريف والخضرة التي لا تنتهى، لم أشعر أبدا بوحشة فى القطارات إلا مرة واحدة، كان سفرى فيها بين نيويورك وشيكاجو، لم أر شيئًا غير العتمة طول الطريق وكان القطار بطيئًا، من قبل سافرت فى رحلة طويلة أيضًا بين موسكو وكييف، وبالليل، لكن الليل الروسى كان أبيض دائمًا، مضاء بالجليد على الجانبين، كانت سفرة نهارية رغم أن الوقت ليل، تذكرت فيها ليالى ديستوفسكى البيضاء كثيرًا..

سافرت من باريس إلى روشيل بالنهار، صباحًا. مجرد ثلاث ساعات، الوقت صيف والدنيا حول القطار مفعمة بالمرح، مرح الأضواء وهي تسكب على الأشجار الخضراء والطيور البيضاء تملأ الحقول.

وصلت لاروشيل، وعلى رصيف المحطة غمرتني شمس أغسطس. أحب الضوء المتسكب من السماء، اترك نفسي له ينسلني من همومي أسرع من أي شئ آخر، وبسرعة نظرت إلى الاتساع الرائع للمحطة، إلى طرازها القديم، هذه المحطات الكبيرة تحملني إلى وادي الراحة.

غمرني التفاؤل، ورأيت قريبًا مني، عند الباب، ثلاث ابتسامات جميلة. صديقي الكاتب جبار ياسين، وزوجته السيدة سلفيان، والسيدة سلفيان دل بوست نائبة المحافظ للشئون الثقافية. كان معي ولداي وائل وإياد، وائل في الثامنة عشرة وإياد في السادسة عشرة وهما يعرفان جبار جيدًا، رأياه قبلي وهتفا فرحين بوجوده وخرجنا جميعًا من المحطة سعداء وفي الطريق إلى الشقة بشارع سان جون لم تغب عيناي عن جانبي الطريق القصير.

أعرف فرنسا، لقد أتيت من قبل عشر مرات، أكثرها في باريس وزرت بوردو وبواتييه وليون وبلوا وضيل نيف سيرلوت. لم يعد يدهشني النظام في الشوارع ولا النظافة ولا الرقة في التعامل ولا الروح

النتية الرقيمة في كل شيء، ابتداء من المباني حتى المقاهي والبارات الصغيرة، لكن وقعت عيناي على الميناء القديم والزوارق الواقعة في المياه والمقاهي على الرصيف وحركة الزوار الكبيرة، تذكرت على الفور الإسكندرية وبالتحديد منطقة بحري والأنفوشي، وشممت رائحة هواء الإسكندرية وابتسمت .. هنا مرح أكبر في الطرقات، فالشباب في عناق دائم مع الفتيات، وفرق الرقص والموسيقى والممثلين الهواة والحواة تملأ الطرقات إنه الصيف والإجازات، ولاروشيل كما عرفت مدينة يحبها الفرنسيون كثيرًا في الصيف، لكني رأيت أضواء كثيرة تلمع في الفضاء، أضواء تنعكس من كل مكان، لم تكن في الليل فالوقت كان الثانية بعد الظهر، والنور الغامر للمدينة يأتي من الشمس التي هي في السماء، فما الذي يعكس كل هذه الأضواء أمام عيني؟ لم اكن في حاجة إلى وقت طويل لأعرف أنها أجساد الفتيات والنساء.. أدركت أن الطريق مفتوح إلى النهاية على الأقل بالنسبة لولديَّ وتطرت إليهما فوجدتهما يبتسمان في خجل، قلت هو اليوم والغد على الأكثر وسوف يتركانني وحدي!

* * *

كل يوم في الصباح أقف على حافة الميناء القديم أشرب هواء الصباح. أرى على يميني القلعة فأتذكر قلعة قايتباي بالأنفوشي بالإسكندرية، وأرى الزوارق

فأتذكر زوارق الإسكندرية، هنا زوارق عصرية وأنيقة، لكن الزوارق البدائية لا تزال تحتفظ بدهشتها، وأشم رائحة شباك الصيد رغم أنه لا توجد شباك للصيد، وأدور حول الميناء فأصل إلى الناحية الأخرى وأمشي كثيرًا حتى أكاد أصل إلى ميناء المينيم وأعود بين الهواء النقي والخضرة في كل مكان فأجد المقاهي والمطاعم قد انتهت من فرش الأرصفة الواسعة بالمقاعد وأجد الباعة قد نصبوا أماكنهم وفردوا بضائعهم للسياح وفرق الموسيقى احتلت الميادين الصغيرة والرسامين احتلوا الرصيف العريض المجاور للميناء. أصل إلى البولا نجيري القريب اشتري قطعة خبز بالزبيب، لا أستطيع أن أقاوم الحلوى الفرنسية. أفسدت الريجيم الذي كنت قد بدأته في مصر، وفقدت بسببه ثمانية عشر كيلو جرامًا. ازداد وزني وعاد إليه ما فقدته في مصر.

أمر بعد ذلك من تحت الساعة الكبرى، توجراند أورلوج وانحرف يسارًا إلى مقهى المارين، يبدأ يوم عملي في الكتابة. آخذ مكانًا في الركن البعيد الهادئ بالداخل وأجلس، لم أشرع في اكتشاف لاروشيل. إنها مدينة صغيرة مفتوحة للضوء والريح، تعلن أسرارها بسهولة. في الثانية عشرة أغادر المقهى إلى البيت القريب. لا ألتفت الآن لحركة السياح، ولا فرق الموسيقى والألعاب، أريد أن أوقظ ولديَّ اللذين اكتشفا بسرعة أماكن السهر. أجهز لهما طعام الإفطار، أفعل ذلك دائمًا في الصيف في الإسكندرية،

ذلك يسعدني جداً. لقد اصطحبتهما معي من القاهرة، رغم التكلفة الكبيرة لذلك، أردت أن أحدث فيهما صدمة المعرفة، فالحياة في مصر الآن تغرق بالكسل، الشباب يتنفس الإحباط مع الهواء، المدارس والجامعات لا تقدم معرفة حقيقية، وفرص العمل بعد سنوات التعليم الطويلة قليلة، ولم يعد أ مام الشباب غير اللهو المجاني، والضحك بلا معنى، أو السقوط في يد الإرهاب، خاصة في الريف، حيث يجد في البداية من يقدم إليه العمل والمكان والزوجة ثم السلاح.. إنه جيل مسكين يرى كل الطرق مسدودة أمامه، لا يفلت منه إلا القليل بمساعدة العائلات أو بالسفر إلى الخارج وهو صعب، والسفر إلى الخليج لم يعد فرصة لأحد بعد حرب تحرير الكويت، لم تعد فرص العمل كثيرة في الخليج، والمصريون لا يعاملون هناك بالتقدير المناسب، دائمًا مذلون مهانون أبناء الفراعنة في الخليج!!

أردت أن يرى ولداي فرنسا، ليتعلما فيما بعد اللغة الفرنسية، أو يعرفا قيمة أن يعرف الإنسان لغة أخرى، فيتقنا الإنجليزية، وليريا الدقة والنظام وقيمة التقدم العلمي، لأبث فيهما على الإجمال حب المعرفة، وليعرفا أن هناك دائمًا في الحياة أملا، وبابًا للسعادة رغم أن الكثيرين من أصدقائي حذروني من مغبة أن يحدث العكس حيث يقارنون بين أوضاع فرنسا

وأوضاع مصر، لكنى راهنت على فكرتى ولن يضيرنى إذا خسرت الرهان إلا بعض المال قد ضيعته، ومنذ متى أحتفظ أنا بالمال أو أحبه؟!

* * *

قال لى الرجل العجوز فى مصر

أننى الآن أعيش فى بيت بلا سقف

وتركنى ومضى

لم أفهم ماذا يقصد العجوز

عرفت بعد ذلك أنه فقد من قبل زوجته.

عرفت لماذا أنا بردان دائمًا، رغم أننى فى الربيع، وعلى غير موعد، قابلت المرأة التى انتظرتها. كنت أزور إحدى صديقاتى فى عملها لأول مرة وكانت هى هناك. قدمتها لى قائلة: مدام «م» صديقتى وزميلتى.. تعمل فى المكتب المجاور. وسكت، لم أرد، ارتدت روحى عشرين سنة وأنا أرى السيدة «م» تبتسم، وخرج الكلام من فمى سريعًا، كلام قد حبس طويلاً جداً جدًا، قلت لا ياسيدتى أنا أعرفك منذ عشرين سنة، أمضيت معك شهرًا كاملاً فى إحدى الدورات الثقافية التى كانت تتعلق ببرنامج الأمم المتحدة لتنظيم الأسرة فى مصر، ليس لى أبدًا أية علاقة بتنظيم الأسرة، لكنهم فى وزارة الثقافة قالوا لى أن أشارك فى الدورة لمجرد معرفتى بالإنجليزية، وطوال شهر كامل كان عملى فيه أن أجلس مستمعًا

للمحاضرات شاردًا فى أشياء أخرى، منتظرًا آخر النهار حين يعطون كل منا عشرة جنيهات مكافأة، وعشرة جنيهات كانت شيئًا كبيرًا جدًا ذلك الوقت، وفى كل يوم فهذا شئ رائع، ومتخيلاً نفسى وأنا أذهب فى الليل أبددها فى فندق هيلتون، على البيرة والبيتزا وأعزم أيضًا أصدقائى، فقد كانت تكلفة الشخص لا تتجاوز الجنيه والنصف، وضحكنا، وقلت لها كان هناك عمل آخر لى هو مراقبتك طوال الوقت عيناى كانت دائمًا معلقتين بك، بابتسامتك التى تهتز لها الدنيا بعينيك الخضراوين، بلثغة لسانك الخفيفة فى حرف الراء، بتكاسلك فى الكلام، إلا أنى كنت أراك مخطوبة يأتى خطيبك لاصطحابك كل يوم، وأرى سعادتك به، وكنت أنا متزوجًا من التى أحبها ولا أريد أن أهدم بيتى. كان واضحًا لى صعوبة العلاقة معك فسكت، رأيتك بعد ذلك فى الشوارع أكثر من مرة، رأيتك دائمًا غير سعيدة. وفى معظم الأحيان نحيلة فقدت كثيرًا من فرحك وبهجتك ثم اختفيت لخمس عشرة سنة من الفضاء.

ومن البيت أكملنا الحديث بالتليفون فى البداية، كنت على يقين بأنى أسعدها، فامرأة تجد رجلا يتذكرها منذ عشرين سنة لا بد تسعد به .. وتفجرت من حولى ينابيع البهجة وحملتنى الغيمة البيضاء إلى السماء، وعاد المسجل يعمل ويبث الأغانى العاطفية، وتلبستنى قوة جبارة على العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، ما بين قراءة وكتابة وأحاديث معها وخرجنا

إلى المطاعم والأوبرا نحضر حفلات الباليه التي تحلق فيها الفراشات مع الضوء ثم ينتهي كل شئ إلى الصمت. سافرت إلى أمريكا وعادت بعد شهر أفاقت فيه من الحلم. أن تتغير حياتها الآن أمر صعب. لقد جعلها زوجها السابق تكره كل رجال العالم، وأحبت ولديها وعاشت لهما، وهي لا تستطيع أن تهدم هذا العش، وكنت أتوقع ذلك، فالذي يذهب إلى أمريكا لا يعود أبدًا كما كان. لم أنتظر أن تقدم لي أي مبررات مقنعة أو غير مقنعة، كنت أعرف أن قليلات هن من يستطعن ان يكن مثل أنا كارنينا . أو مدام بوفاري في مصر، وكنت أعرف أنها من النوع شديد الترتيب والنظام، لقد أدخلتها فجأة منطقة الحلم، لكنها أفاقت في أمريكا، إ نها امرأة عملية لا تخشى حتى الوحدة، قلت يكفي أنها أعادت السقف إلى بيتي ولو لبعض الوقت، كانت قصة، وعادة قصة، ولاروشيل ستقسل أحزاني. إنني على يقين من أن هناك ناديًا سريًا يدخله أناس منذورون لعذاب غير مبرر، ودائمًا كنت مستعدًا لدخوله، وأتيت لاروشيل أحمل جرحين وسألت نفسي وأنا أرى طيور البحر تختفي من فوق المحيط في المساء، كيف حقًا لم أعرف الإجابة على هذا السؤال، أين تذهب طيور البحر في المساء؟ كنت في صباي أراها فوق شاطئ المكس بيضاء عفية، ولا أراها في الليل، والبحر المتوسط ممتد أمامنا إلى مالا نهاية، كما يمتد الآن المحيط، فأين حقًا تذهب

هذه الطيور. هذا السؤال القديم يقفز الآن إلى قلبي في لاروشيل..

* * *

على باب نيويورك يوجد تمثال الحرية

كان مقررًا أن يوضع هذا التمثال

على قناة السويس المصرية

أخذته أمريكا..

قلت لنفسي ربما لهذا السبب

أرى النسخة الأخرى

وسط نهر السين في باريس

دائمًا حزينة..

ثم أحب شقة شارع سان جون. كانت ضد لاروشيل، لاروشيل مفتوحة على أفق من الضوء. الشقة مغلقة على كوابيس قديمة. كانت أربعة ستوديوهات صغيرة، في كل واحد نزيل. وكنت أنا وولداي في أكبرها، وبين الاستوديوهات صالة كبيرة بها تليفزيون ومقاعد. والبيت كله جزء من مدرسة قديمة، والسلم المفضي إلى الدور الثاني حيث الشقة خشبي قديم يئن تحت الأقدام، وخلف الشقة فناء المدرسة يصدر هسيسًا غريبًا بالليل، والثلاثة الآخرون الذين يشغلون الاستوديوهات الأخرى شباب حزين بائس: شاب مغربي شارد الذهن دائمًا يفكر في صعوبة الحياة المغربية التي تنتظره، الفقر والبطالة،

وينوي السفر إلى ألمانيا يبحث عن حياة جديدة، والفتاة مثله، لكن كان فيها كثير من الملامح المصرية و يوم غادر الشقة بعد انتهاء إقامتها - كانا مقيمين وفقًا لبرنامج التوأمة بين لاروشيل وبلدة الصويرة المغربية لثلاثة أشهر - يوم رحيلهما سبق الشاب الفتاة إلى الرحيل بيومين، ظلت فيهما الفتاة تبكي كثيرًا ورأيت الشاب قبل رحيله وهو يودعني كأنما هو قادم من عاصفة ترابية، وحين رحلت الفتاة سألتها هل هي عائدة إلى المغرب قالت لا سأذهب إلى بوردو، سألتها هل تعرفين أحدًا في بوردو قالت: لا، لكني سأبحث عن بيت للشباب وأحاول أن أجد لنفسي حياة هناك. كانت أصغر عن العذاب الذي ينتظرها، لكنه عالمنا العربي، لم يعد المكان اللائق بأبنائه.

الفتاة الفرنسية كانت أكثر مأساوية .. نحيلة جدًا، تبدأ إفطارها في التاسعة صباحًا وتنتهي منه في الثانية ظهرًا، أجل، وبين الإفطار تهرول ما بين المطبخ والحمام لتفرغ ما أكلته ثم تعود تأكل من جديد، كانت تثير صخبًا كبيرًا وهي تتحرك مسرعة، وبعد الثانية تخرج إلى عملها، ممثلة في إحدى الفرق المسرحية، وتعود بالليل تبكي من المعاملة الغليظة للمخرج معها. وتأكل وتهرول بين المطبخ والحمام تفرغ ما أكلته، ثم تدخل لتنام حين ينتصف الليل، متعبة جدًا وشبه ضائعة، لذلك لم يكن غريبًا أن تمتلئ الشقة بالليل بالكوابيس، رأيت كوابيس أكثر مما

رأيت في حياتي، وحولت الأمر إلى شيء مضحك ورحت أنتبه بالنهار إلى لا روشيل، وصرت أعود إلى الشقة في أوقات قليلة، وأحببت الكتابة في مقهى المارين، ونمت بيني وبين جون بيير ذي الوجه اللاتيني وإريك ذي الوجه الفرنسي مودة طيبة، لكن اللغة الفرنسية لم تكن تسعفني، إنهما يتكلمان بسرعة كبيرة كما يعملان بسرعة كبيرة، ورحت أكتشف متاحف لاروشيل وباراتها، أحببت بار الجينيت Guig-nette بار قديم كان الصيادون يرتادونه في الماضي حيث كان الصيد بسيطًا غير آلي، بار يحمل رائحة التاريخ، مناضده براميل قديمة، ومقاعده خشب شديد القدم وهو دائمًا مفعم الحيوية، حيوية الشباب والفتيات، والغناء والمرح والقبلات .. في متحف لاروشيل الصغير وقفت كثيرًا عند لوحة فتيات لاروشيل التي تصور نساء لاروشيل وهن يدافعن عن المدينة في العصور الوسطى لكني لم أخف منهن، كن يتسمن حولي في كل مكان، أتكلم معهن فيحتملن لغتي الفرنسية الركيكة.. وفي إحدى المرات دخلت أحد المحلات أشتري ملابس.. تحدثت بالفرنسية، ابتسمت الفتاة وقالت إنها آسفة لأنها لم تفهم ماذا أريد فابتسمت وقلت لها وأنا أيضًا لم أفهم ماذا قلت، وضحكنا واشتريت وباعت!!

نساء لاروشيل مثل شمسها وهوائها.

سافر ولداي بعد شهر صنعًا فيه قصصًا سيحكيانها كثيرًا لأصحابها، وربما يكتبانها هما يومًا وعدت إلى لاروشيل بعد وداعهما في مطار أورلي لأنتقل من شقة سان جون إلى شقة أخرى بحي لاميريّ La Morille وكان سبتمبر قد دخل على المدينة ومضت منه عشرة أيام.

* * *

المظاهرات في مصر ممنوعة دائمًا
وكنت في الستينيات أحول الرحلة المدرسية
إلى مظاهرة صامتة مع زملائي الطلاب
كنا نمشي في الشوارع والحدائق
نرفع أذرعنا ونفتح أفواهنا على آخرها
بلا كلام
المدهش أننا كنا نعود آخر النهار متعبين
وتقع بيننا إصابات.

الجو المفعم بالحرية من حولي يقلب أمامي في صفحات التاريخ والشقة الجديدة بالحي الجديد بدت لي إنسانية، ليس معي فيها غير شاب جزائري موسيقي جميل ما لبث أن غادرها إلى شقة أخرى وصرت وحدي. في البداية خفت من الهدوء الشديد للحي، لكن الليلة الأولى مضت بلا كوابيس. وكذلك الثانية وما بعدها وبدأت أسعد بالشقة. بالأشياء الصغيرة فيها مثل الغسالة، التي لم تتوافر في الشقة

السابقة فكنت مضطرًا للذهاب إلى مغسلة عمومية. كانت المغسلة العمومية فرصة أن اتحدث مع نساء وقت انتظارنا لانتهاء الغسيل والتجفيف، لكن أهم ما تحقق من حديث كان مع شاب هندي يتحدث الإنجليزية راح يكلمني عن الاستعمار الإنجليزي زمان في مصر والهند!

وجدت أن النهار طويل جدًا الآن. أنا لا أستطيع الابتعاد عن مصر أكثر من أسبوعين، الآن صار النهار طويلاً بعد سفر ولديّ ولأن المواصلات تنتهي في الثامنة مساء فكنت أعود إلى الشقة مبكرًا، ليس من المعقول أن أسهر كل ليلة في المدينة وأعود في تاكسي ثم إن وجود تاكسي بعد العاشرة بالليل أمر صعب. ذهبت إلى مدرسة مجانية لتعليم اللغة الفرنسية، رحت أقضي فيها تسع ساعات بالأسبوع مع شباب مفعم بالحيوية من روسيا وإنجلترا وتايوان والمغرب والبرازيل وأستراليا وأمريكا وإسبانيا. صرت تلميذًا حقيقيًا يشاغب المدرسة في الفصل وتندهش التلميذات والتلاميذ من قفشاتي. كانت المدرسة طويلة جدًا، أطول مني. وكان هذا شيئًا مدهشًا جدًا لي في البداية. كنت أتخيل أنها ستقع فوقي أثناء الدرس، لكنها لم تقع، وكانت دائمًا مفعمة بالحيوية والطاقة، لكني لم أتقدم أبدًا في اللغة الفرنسية. إنها لغة شديدة الدقة، بدائية، تسمي السبعين ستين وعشرة، والثمانين اربع عشريات، إ نها لغة تشخيصية، بعيدة عن التجريد، ثم إنها لغة

مدللة، بها كثير من الضمائر، وحركة التقديم والتأخير فيها لا تنتهي، واللسان الفرنسي مولع بأكل الحروف وما أكثر الحروف التي لا تنطق في اللغة الفرنسية، فات الأوان. إنها لغة تحتاج إلى الشباب والشباب لا يعود مهما بدا أني أمتلئ بالطاقة والحيوية، ولقد ارتكبت كوارث بما يكفي أشاء الكلام، وتحول غلاف الكتاب إلى زنزانة، كوفرتير إلى كوفراج، والخوف إلى قضيب، لابير إلى لوبير وهكذا ظل باب اللغة مفتوحًا على الخطأ، لكن الجميع كانوا صبورين معي ويشجعونني، لكن ماذا يفعل التشجيع في رأس متعب.

* * *

رأيت السحب السوداء تركض تحت سماء لاروشيل، إنه الخريف. قفزت الإسكندرية مع الحزن، الخريف مفتوح على الحزن معي دائمًا. الحزن يرتاح على المدن الساحلية، لكن المتوسط يختلف عن المحيط، في المتوسط أنت تقف على تاريخ، في المحيط أنت تقف في زمن غامض، زمن لم يخلق فيه الله الإنسان بعد، هواء المتوسط يدفعك إلى الحركة، إلى اختراق ما هو عادي، إلى النزق، هواء المحيط يشعرك بالخوف، يبدو كمصير غامض يحملك إلى هوة، والنور الآن في لاروشيل لا ينقطع طوال النهار الطويل جدًا، النور الآن مثل زجاج شفاف تجري عليه مياه بلا لون. كل شيء الآن ينذر بالفراق

فى لاروشيل. السياح يرحلون، الفرق الموسيقية والفنانون يرحلون. لكن المدينة لا تتسع، تصبح أضيق. تدخل في الصمت، على الأقل خمسة أيام في الأسبوع حتى يعود إليها في الويك إند زوارها، شوارع لاروشيل صغيرة ضيقة، دائمًا على الجانبين يواكي في البنايات القديمة ذلك كله لم أره مع زحام الناس، كانت دائما تبدو أوسع. الآن أمشى في سراديب هادئة، نظيفة لكنها سراديب، أمشي في المصدر الوسطى حتى أصل إلى الميناء أو بلاس فردان وتزداد الحركة. أحب الخلاء لكنى أحب الناس أكثر. إن طيور البحر لم تعد كثيرة كما كانت في الصيف، لعلها هاجرت تبحث عن الدفء. تقلب الجو في لاروشيل ولم تعد هناك أجساد تعكس أضواء الشمس ولا زحام على محلات الجلاس وظهرت السترات الشتوية، وبدأ الناس يتحدثون عن العواصف، وعن العاصفة الجبارة التي جرت منذ عامين وأطاحت بالأشجار والأبقار والمباني والناس. لكني أحب المطر. أحب أن أخرج بعد أن ينقطع المطر. كان المطر ينقطع في الإسكندرية فأخرج مجنونًا أركض ما بين محطة الرمل وسيدي جابر ينعشني الهواء الذي يخافه الناس وأمشي بين رذاذ البحر الذي يبتعد عنه الجميع وأمر على جدران البيوت بيدي أتلذذ ببرودتها، كنت أجد الدفء دائمًا في الهواء الطلق لذلك حافظت في لاروشيل على نفس الملابس الصيفية فقط أضفت فانلة داخلية تحت القميص

نصف الكم، واظبت على الكتابة الصباحية في مقهى الصارين، ارتحت إلى المكان الذي يقع على الميناء وإلى المعاملة الطيبة للجرسون جون بيير وزميله اريك، إنني أكتب حلقات للتلفزيون المصري، لا أستطيع كتابة رواية خارج البيت. ثم ملأ بن لادن الفضاء.. بن لادن هو العاصفة التي يتحدث عنها الجميع.

* * *

عندما رأيت مركز التجارة العالمي يشتعل أمامي في التليفزيون ثم يسقط، عندما رأيت البنتاجون يحترق، تصورت انه فيلم أمريكي مثل فيلم يوم الاستقلال. هل كان هذا الفيلم نبوءة بما جرى - بعد لحظات استوعبت الكلام الفرنسي، إنها حقيقة وليست سينما. في السينما يخرج المشاهد مرتاحًا لقوة أمريكا وعلى الأكثر مندهشًا، وإذا كان يتمتع ببعض العقل لن يصدق الفيلم الأمريكي. لكن هذه الحقيقة التي جرت لا تترك الإنسان مرتاحًا، وبالطبع لا يمكن تكذيبها. والدهشة سرعان ما تختفي مع تقدم الأيام. هناك دهشات أخرى من كوارث أخرى، كارثة انفجار مصنع الأسمدة في تولوز، كوارث إسرائيل في فلسطين، كارثة الرد الأمريكي على بن لادن، أسف على لا أحد.. للأسف الأمريكان الآن يضربون لا أحد. لكنهم يقتلون شعبًا كاملاً بأطفاله ورجاله ونسائه وعجائزه هو الشعب الأفغاني المسكين

الذي صنعت أمريكا كل مآسيه منذ تشجيعها للحركات الأصولية هناك ورعايتها ومدها بالسلاح والمال. أمريكا صنعت الإرهاب الذي يحمل اسم الإسلام، وهي الآن تدفع الثمن، وتعمل عارها بقتل شعب كامل بعد أن أوصلته إلى أقصى حالة بدائية يمكن أن يصل إليها البشر خلال ثلاثين سنة من الدعم الأمريكي للإرهاب.

اشتعل الجو الإعلامي حولي في نقاشات كثيرة عن الإسلام والحركات الإسلامية، لم أتابع جيداً بسبب اللغة، لكني تابعت حركة المشتركين في النقاش. في البداية كثير من الحركات بالأيدي وارتفاع في الأصوات. شيئاً فشيئاً ظللت الحكمة الجميع. صار الكلام كأنما هو عن مشكلة نظرية. لقد بدأت أمريكا في ضرب شعب متخلف. هذا لا يهم أحداً في الغرب. وهذه هي مشكلة الغرب، إن موت الشعوب الفقيرة لا يصنع مأساة عند الكثيرين هنا. في الغرب، كما يفعل ذلك موت طفل في دولة متحضرة. هذه هي المأساة الحقيقية. الغرب يتعامل مع الشعوب العربية والإسلامية من خلال الحكومات. لا يعرف الشعوب، لا يقرأ أدبها وإنتاجها الثقافي الشعبي. والحكومات العربية والإسلامية بدورها تابعة للغرب رغم ما يبدو من عدائها له في بعض الدول. على الغرب الآن أن ينظر إلى الشرق نظرة ثقافية، لا نظرة سياسية. هنا شعوب تبني حضارتها الجديدة وإن في الكتب. إن الرد الحقيقي على الإرهاب هو أن يحول الإعلام

الغربي والمؤسسات الثقافية الغربية اتجاهه إلى معرفة الإنتاج الثقافي الشرقي: هو في مساعدة الحركات الديمقراطية الصاعدة أن تصل إلى الحكم، لا في تدعيم الحكومات الديكتاتورية ثم ضرب شعوبها عند أول خلاف. لكن الغرب، بقيادة أمريكا، لن يفعل ذلك على الأقل في القريب العاجل سيظل يدعم دكتاتوريات الشرق ثم يضرب الشعوب. إنها مأساة حقيقية. وجاءني الهاتف من مصر يسألني هل لمست تغييراً ما في المعاملة بين الفرنسيين. قلت الحقيقة أن ذلك لم يحدث أبداً. رغم أن الفرنسيين وقفوا حداداً على ضحايا الانفجار في أمريكا، إنهم الآن يشاهدون في التليفزيون صور الضحايا من أفغانستان وفلسطين. صور كفيلة بأن تهز العالم كله. لكن العالم لا يهتز. العالم مشغول بقصة الشريون، والحرب الكيميائية التي هي اختراع شيطاني في لحظة مناسبة لتنفيذ سياسة الانتقام من الشرق.

* * *

ريموند بوزيير، نويل فاقرييه، جوسيان دي جيسيس، سيرج فيليس، رشيه كلود، موسى صاحو.. أسماء رائعة لكتّاب وفنانين قابلتهم. ريموند صاحب الأسلوب القوي في الرواية المعصرية. قرأت بعض صفحات من روايته القصيرة (الضيعة الصغيرة) القراءة عندي أسهل من الكلام. هناك شخص آخر يتكلم، وبالطبع أسهل جداً من الكتابة فهناك شخص

آخر أيضاً يكتب ويتحمل مشقة اللغة، اي لغة في العالم؟ إن عذاب اللغة لا حدود له، إنها سجن جميل، الخروج منه بلا منطق أو معرفة يفضي إلى كارثة تبدأ بكوارثي أنا الصغيرة، إلى كارثة دولة كالجزائر، يحاربون بعضهم باسم الإسلام ولا يعرفون اللغة العربية. لم يدخلوا سجنها بعد. أسلوب ريموند قوي محمل بالشعر والعنف، عصري يجري على إيقاع عميق وعريض. في ريموند رأيت نوعاً من الناس كنت أسمع عنه ولا أراه. الذي يعيش كما يكتب. في المنطقة الصادقة من الفكر والسلوك شيوعي متفائل وقوي وصريح وجارح. نويل فافرييه نموذج ثان للصرامة والجرأة والشجاعة لو لم يكتب هو مذكراته (الصحراء في السحر Le desert A' laube لكتبتها أنا عنه. لو كان نويل عربياً لتمنيت أن أكتب تجربته، تجربة خارج الزمن.

شاعر ومقاتل يترك الجيش الفرنسي في الخمسينات ويحمل الجريح الجزائري ويصعد به إلى الجبال ويعيش مع ثوار الجزائر ويحكم عليه بالإعدام مرتين ويرفع عنه الحكم حين تتمع حركة المثقفين الفرنسيين تطالب بالخروج من الجزائر ويدور في المنافي من تونس إلى الولايات المتحدة إلى البوسنة إلى قريته الصغيرة (أجروفي) التي مشيت معه في دروبها يحكي لي ما تبقى من قصص الاحتلال النازي ومقاومة أهل القرية.

نويل الذى تجاوز السبعين الآن يذكرني دائماً بالشباب عندما ينظر لى بعينيه اللامعتين يبدو لى كأنما هو الدهشة الطفولية مجسمة فى ضوء لامع وسط الليل.

جوسيان دى جيسيس شاعرة تحب مصر والعرب. لديها دائمًا سجائر جزائرية ومصرية إنها امرأة سعيدة بالوقت والفراغ، بريئة إلى درجة أنها حين أرادت أن تروح عنى أخذتنى إلى نادى بنج بونج خاص بالشيوخ، كانت ساعات ممتعة وأنا أرى سيقانًا رفيعة تحمل سبعين سنة وأكثر فوقها وترقص.. ثم جاءتنى إفريقيا مع الرسام الشاب موسى ساخو. فى بيت ريموند التقيت بالممثل والرسام زينيه كلود، رجل هادئ يبدو دائمًا وقد فعل ما كان يجب عليه أن يؤديه، وفي بيت ريموند التقيت بموسى ساخو الذى حمل لى أفريقيا. سنغالى مسلم لا يشرب الخمر، مولع بالأطفال ويرسم لهم. ولذا، لوحاته مفعمة بالبهجة عيون لامعة وسط وجوه سوداء محمولة على أعناق طويلة جدًا كأنما تعلن عن وجودها البرئ فى العالم، وجوه تريد أن ترى العالم من نقطة سامية، براويز لوحاته من خشب قديم. خشب الأبواب والشبابيك القديمة، ليست المعاصرة تطل من بين الأصالة، لكنها روح أفريقيا الوثابة تحمل تاريخها معها، الإفريقيون سعداء حتى بين الخرائب. اختلفت لاروشيل حين التقيت بفنانيها وكُتّابها. لم تعد مجرد

مدينة ميكيقية يمرح فيها اشباح ولا شوارع قديمة تحملك إلى زمن مريح. صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

* * *

مصر الآن تقترب مني. دفعت إلى بأربعة مصريين هم كل المصريين الذين في لاروشيل. أربعة فقط، ثلاثة منهم أصدقاء والرابع بعيد، كان لقائي الأول مع الرابع. شاب سكندري رآني في السوبر ماركت فعرفني، أنا الكاتب الذي ظهرت صورته في الصحف كان قد سبق له والتقى مع ولدي، دعاني إلى بيته لغداء خفيف، هناك ناقشني كثيرًا، كانت كل المناقشة تدور حول لماذا دائمًا لا يتحد المصريون في الغربة. لماذا يختلفون، لماذا يضيع بعضهم في رياح الحضارة الغربية السريعة، وعرفت من الثلاثة الآخرين انه بدد ثروته. هو ايضًا قال لي ذلك. أخذ رقم تليفوني في لاروشيل ولم يترك لي رقم تليفونه كما قال. كنت أمر على بيته فأراه مغلقًا دائمًا، يبدو لي مهجورًا، إنه شاب محمل بالقصص المريكة. نموذج فتي رغم أن الثلاثة الآخرين قد اختلفوا معه، ليس مهما ان أعرف من المخطئ ومن المصيب. المهم انه اختفى ولم يعد له اثر. كنت أريد ان أستمع إلى قصصه التي يحملها، قصص النجاح والفشل. منه هو وليس من أحد آخر، لكنه تبدد بعد أول لقاء. لم يتركني الثلاثة الآخرون، محمد سعيد ومحمد عبد الفتاح واحمد حسن، مهم

أن أكتب أسماءهم. كل منهم قصة نجاح وتعب، كل منهم حالة فنية، يشتركون في شيء واحد، مصري، جميل. هو الشهامة المصرية، وكل منهم بعد ذلك ينفرد بقصته، ليس مهمًا أن أروي قصصهم هنا، لكن محمد عبد الفتاح حالة أكبر من زمنها، إنه يجري على المصريين كطفل تاه سنينًا عن والديه في الغابات ثم فجأة رآهم عند نهاية الغابة، إن الفرح يسبق كلامه وهو يقابل أي شخص مصري، لقد ترك مدينته، مدينة الطور، صغيرًا جدًا واشتغل على السفن وطاف العالم عاملاً على يخت امريكي، وفي كل هذه السنين لم يفقد طفولته. شيء مدهش هذا الرجل سريع الكلام، يفرش لك عواطفه أمامك في الطرقات.

المدهش أنه كان الأكثر قربًا مني لكني دائمًا أنسى ملامحه، إنه لن يغضب مني حين أقول ذلك، سيفهم المعنى، إنه وجه بحّار يطل عليك مع الريح، يترك لك قصة ويذهب يبحث عن قصص أخرى، يعود محملاً بالأساطير، وجه لا تنساه ولا تمسك به. يظل يدور حولك ومعك وتبتسم وأنت لا تعرف هل هو قريب منك أم بعيد عنك. إنه يبحث عن مصر والمصريين، لكن سرعان ما تحمله الريح مثل كل البحّارة، محمد سعيد صاحب مقهى الأهرام في لاروشيل، هادئ، ناجح في عمله وعنده دائمًا مشاريع مؤجلة للعودة إلى مصر، شخصية فنية أخرى. قصة

قصيرة مركزة لكن محمد عبد الفتاح رواية تنتهي متها لتجد نفسك في بدايتها. عادت إلى مصر مع المصريين، ومع الشاب أحمد حسن الذي يعمل كل الوقت. ليس لديه وقت إلا للعمل، لقد جاء ليكافح وهو يكافح حتى ولو كان مرتاحًا..

عادت إلى مصر مع النوستالجيا التي تزداد كل يوم، التي تمسكني الآن وتتسع في روحي وصوت فيروز يكاد يدمعني، وهي تقول ما في حدا، عتمة وطريق وطير طاير على الهدا. أخاف الأغاني التي تربيت عليها، لا أريد أن أسمعها الآن، ستجعلني لا أرى الحدائق ولا الضوء وأنا مضطر للبقاء. لقد أتت الأحزان المصرية معي، قفزت إليّ مع اقتراب عودتي ماتت أمي وأنا هنا بعيد وجاءتني ابنتي الأكبر مصابًا إصابة قديمة كبرت مع الوقت دون أن يخبرني، ويحتاج إلى إجراء جراحة عاجلة في كتفه. إن مصر تجري ورائي وأنا أريد العودة إليها.

ماتت أمي.. عرفت نبأ موتها في الصباح الباكر. أخاف دائمًا دقات التليفون في الصباح الباكر. لم يكن ممكنًا الرجوع بسبب حضور ابني الذي تحدد له وقت إجراء العملية الجراحية.. أي سجن صرت فيه فجأة..

خرجت إلى الحدائق الممتدة أمامي في حي الميري، وعدت ثم خرجت إلى وسط المدينة. كل شيء سيتلون الآن بالحزن، أنا أعرف. خاصة والريح هائجة، والسماء رمادية وطيور البحر لم تعد بيضاء. لا بد أن أغلق باب الحزن. وبسرعة. ثم ما ذنب القارئ.

ذهبت إلى بار الجابانيت فوجدته مغلقاً، ذهبت إلى المرأة التي كنت على موعد معها فلم تأت. أجل. هذه حقيقة، ذهبت إلى البنك أسأل عن نقود انتظرها فوجدتها لم تصل. توقفت في الطرقات أفكر في ألبير كامي، في مورسو، الذي افتتحت الرواية بموت أمه.. ألبير كامي يكتبني الآن.. ذهبت إلى معرض موسى ساخو لأشرب معه الشاي السنغالي فلم أجد موسى، ووجدت زواراً لا أعرفهم، اتصلت بالشين من المصريين فوجدت الأنسر ماشين يرد عليَّ، إنهما في العمل. وأنا لا أحب الأنسر ماشين. ذهبت إلى أكثر من مكان وفي كل مرة كنت أتوقع أن ألبير كامي يكتبني، بعد نصف قرن من كتابته للغريب. مر النهار خائباً لكني أبداً لم أشعر بالضيق. في المساء أطل عليَّ جبار ياسين بوجهه الطيب، ونويل فاقربيه بدهشته الطفولية. كانت الدموع قد سبقتهم إلى وجهي منذ لحظات وكانت قد جففت دمعي، كنت خائفاً ! لا أبكي. لم أبك كثيراً، لحظات هادئة تسللت فيها الدموع وجففتها، كان جبار قد فقد أمه منذ شهور، لم يرها منذ ربع قرن، ماتت في العراق الأسير وهو في المنفى، كنت قد رأيت أمي قبل سفري وابتسمت وقلت له الموت ليس مشكلة لكنها الطريقة التي يتم بها هي التي تؤلمنا..كان وضع جبار أكبر عزاء لي وأكبر عزاء لأي أحد. ذهبنا إلى بار الجابانيت، رحنا نتكلم في كل شيء، وفجأة مد لي نويل الجميل يده يصافحني بعزيتي في وفاة أمي. كان

واضحًا أنه لم يعرف ماذا يفعل في هذا الموقف وظل كذلك لوقت طويل حتى وجد الحل، الطريقة السهلة جدًا، أن يشد الصديق على يد صديقه..

انضم إلينا بعد قليل شخص ثالث يحمل اسم باتريس.. رجل ضخم سمين قال لي جبار إنه كان أضخم من ذلك من قبل. وأنا أشعر دائمًا بالأمان مع الناس السمان. أشعر دائمًا أنهم أبرياء. أكثر براءة من غيرهم. إنه مثقف متعاطف مع الفلسطينيين وقضيتهم وصاحب مصنع يغوت. تعارفنا بسرعة مدهشة. وانتقلنا إلى بيته لحظات ثم إلى مطعم صغير. في المطعم انطلقت النكت المصرية مني. قلت نكتًا تلك الليلة شديدة النفاذ لاذعة جدًا مصرية إلى أقصى درجة وضحكنا كثيرًا جدًا، وفي منتصف الليل تركوني بعد أن أوصلوني إلى الشقة. في الشقة أشعلت التليفزيون ورأيت الغارات على أفغانستان.. تنهدت وقلت هاهي أمريكا قد بدأت عملها العبثي، ستشوه المشوهين وتقتل المقتولين بسبب فعلة هي التي صنعتها، ووجدت نفسي أتساءل لماذ حقًا لا تموت أم أمريكا؟ لماذا تموت أم فرنسا وتموت أم مصر.. وسرعان ما أدركت أن أمريكا، الدولة الجبارة التي تهيمن على العالم، ليست لها أم، لم يكن لها أم في يوم من الأيام. لم تتعلم الرقة، لم تعرف كيف تأخذ الناس في صدرها..

أغلقت التليفزيون ونمت..

* * *

فى لاروشيل، كما فى غيرها من المدن الفرنسية تحمل كثير من المقاهى أسماء أدبية، لكن لأن لاروشيل صغيرة، ولأنى أمضيت بها وقتًا طويلاً وقفت كثيرًا عند أسماء مقاهى ومطاعم مثل (أوندين) و(جارجانتوا) و(الزورق السكران Le Bateau Ivre) وغيرها،، وتوقفت مرة عند اسم مقهى مدهش هو (على الرصيف Sur La Quie) وفكرت أن أكتب فيه كل يوم فى الصباح. فهو باسمه ليس بعيدًا عنى وعن حياتى التى أحبها بين حرافيش الكتاب المصريين عل المقاهى الهامشية فى القاهرة إلا أننى فضلت الكتابة فى مقهى المارين بسبب اسمه ولأنه يقع على الميناء القديم ولأنه بموقعه واسمه يذكرنى بالأنفوشى بالإسكندرية،، لكنى لا أنسى ليلة دخلت فيها أحد البارات قرب ميناء (المينيم) بار صغير لم أهتم أن أعرف اسمه جذبنى إليه أنه خال من الناس، ليس فيه صخب الجابنيت ولا شباب الجابنيت المرح. لماذا كنت أبحث عن مكان خال تلك الليلة؟ لا أعرف. لماذ تخليت عن استمتاعى بصخب الشباب والفتيات فى الجابنيت؟ لا أعرف، ربما لأ ن الجابنيت كان مغلقًا تلك الليلة، مؤكد أن ذلك هو السبب المباشر، كثيرًا ما كنت أجد الجابنيت مغلقًا؟ لا أعرف مواعيده. فى الحقيقة أمضيت الأشهر الثلاثة بلا روشيل بلا خطة. لم أخطط لأى يوم. فى ذلك البار الصغير كانت تجلس امرأة نحيلة تجاوزت الأربعين. كانت تجلس إلى البار مباشرة. وهناك فى الركن كان يجلس رجل

متوسط العمر أيضًا وخلف البار كان يعمل شاب صغير وفتاة صغيرة في حيوية شديدة. أجل حيوية رغم عدم وجود رواد. جلست إلى جانب المرأة. كان واضحًا أننا لن نتكلم. كانت مستغرقة جدًا في شرب النبيذ. بلا مقدمات أقبل علينا الرجل الآخر وجلس بيننا وقال نكتة بالإنجليزية. كان واضحًا أنه سكران جدًا فكانت لغته نائمة. ولأن المرأة لا تتحدث الإنجليزية ولا عاملي البار لم يضحك أحد. ولأني وجدتها نكتة بايخة، لم أضحك لكني ابتسمت ابتسامة مجاملة. سألتني المرأة بالفرنسية عما قاله الرجل فقلت نكتة فهزت رأسها. ثم ابتسم الرجل وبدأ يقول نكتة أخرى فقال: كان هناك ثلاثة أشخاص أحدهم يعرف ثلاث لغات هو الألماني والآخر يعرف لغتين هو الفرنسي والثالث يعرف لغة واحدة هي الإنجليزية هو الإنجليزي. ولا أعرف ماذا يضحك في نكتة كهذه. لكن الحقيقة إن الرجل كان يحمل وجهًا بريئًا جدًا. وكان يحتاج أن يتكلم إلى أحد وطلبت مني المرأة أن أترجم لها أنا الذي لا أعرف الفرنسية جيدًا نكتة الرجل الذي عرفت أنه بحَّار إنجليزي. ولم يكن هناك فرصة للاعتذار عن الترجمة. الرجل محتاج للكلام والمرأة محتاجة للسمع ونظر لي الإنجليزي نظرة رجاء أن أقوم فعلاً بالترجمة فوافقت.. راح الإنجليزي يقول النكت الباردة بطريقة بطيئة لسكره البين ورحت أنا أترجمها بلغة فرنسية ركيكة فبدأت المرأة تفتح عينيها بانتباه يزداد شيئًا فشيئًا. ثم بدأت تبتسم ثم

بدأت تضحك وبدأ الإنجليزى يشعر بالرضا فبدأ يبتسم، ثم بدأ يضحك، ثم بدأت أنا فى الدهشة فرحت أترجم وابتسم ثم أضحك، ثم رحنا نحن الثلاثة نضحك على كل نكتة وابتسم عاملا البار ثم راحا يضحكان معنا، وقضينا أكثر من ساعة على هذا الوضع العجيب، لا أحد يفهم شيئًا مما يحدث أو يقال لكننا جميعًا نضحك بصخب رائع ومتعة حقيقية.. ثم خرجنا، منتصف الليل نجرى تحت المطر الذى فاجأنا والريح التى هبت علينا من فوق الأطلنطى وكان كل منا يسمع الآخر يجرى ضاحكًا من بعيد.

المحتويات

الرحلة الأولى:
إلى موسكو بعد طول انتظار ٧
الرحلة الثانية:
باريس للمرة الأولى ٤٧
الرحلة الثالثة:
أدباء مصريون في فرنسا ٧١
الرحلة الرابعة: أسئلة المغرب ٩٧
الرحلة الخامسة:
بواتييه - بوردو عن القراء والرقص أيضًا ١١٥
الرحلة السادسة:
ساحل مريوط ١٣١
الرحلة السابعة:
هل هي رحلة؟: الإسكندرية صورة شخصية ... ١٦٩
الرحلة الثامنة:
لاروشيل.............. .... ١٩٣

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net